عبد الرحيم عجاج

فى سبيل الحرية

تكملة

القصة التى بدأها السيد الرئيس

جمال عبد الناصر

وهو طالب بالمدارس الثانوية عن معركة رشيد سنة ١٨٠٧

فازت بالجائزة الأولى فى المسابقة التى أجراها
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية

إهداء

إلى من آمنت سريرته بقصة الكفاح ...
فبدأ يكتبها بقلمه أسطورة ...
ثم أتمها بذاته .. تاريخاً ...
إلى الرئيس جمال عبد الناصر ...
إلى من احبته قلوبنا ...
أهدى وحي ما بدأ .. وما أتم ..

عجتاج

الرئيس جمال عبد الناصر

جمال عبد الناصر

في سبيل الحرية

قصة بدأها الرئيس جمال عبد الناصر - وهو طالب
بالمدارس الثانوية عن معركة رشيد سنة ١٨٠٧

تمهيد

يوم لا يُنسى ...

... هذا اليومُ العابسُ أوّلُـه ، الباسمُ آخره ، فى عام ١٨٠٧

قال الإنجليز « هذه مصر استقلت عن الترك وحكمت نفسها ، وهى على هذا لقمة سائغة [١] تمضغ وتبتلع ، إذ ماذا تستطيع ملايينهم الثلاثة أن تصنع أمام أسطول بريطانيا وجيشها المدرب المظفر ومدافعها وقنابلها ؟»

قال الإنجليز ، هذه هى الفرصة قد سنحت [٢] لتحقيق حلم قديم ، وأمل طالما جاش بنفوس الإنجليز القدماء .. وما هى إلا أسابيع حتى رست على شاطىء الإسكندرية أساطيلهم .. ودوت القذيفة الأولى من قذائف الجيش البريطانى .. وهم يظنون أنها مسمار كبير فى نعش الحرية والكرامة المصرية وعن قليـل سوف تـكفن هـذه الحرية وتوسد [٣] فى قبرها ويهال عليها التراب .

أصبحت الإسكندرية ذات الماضى الحافل تتقد ناراً وتشتعل . ناراً رأى المصريون على ضوئها أفظع صور الظلم والجشع والطغيان ..

---

(١) ساغ الشراب : سهل مدخله فى الحلق .

(٢) لاحت وعرضت . (٣) الوساد والوسادة : المخدة .

هام أهل الإسكندرية على وجوههم وخرجوا بأطفالهم ونسائهم.. لا يعرفون مصيرهم وبيوتهم من ورائهم تعصف بهم عواصف الجحيم .. ناراً فى كل مكان .. ناراً فى المدينة ، وناراً في القلوب .

والإنجليز سعداء بالنصر الذى فازوا به .. ونزلت الجيوش الإنجليزية إلى المدينة تزهو بالنصر ، وسارت حتى وصلت إلى رشيد ، وكانت إذ ذاك بلدة تشعر بقوميتها ، فهبت كرجل واحد ، ولم تنتظر أمر الحاكم بل دبرت أمرها بنفسها .. فقسمت رجالها قسمين : قسماً ذهب إلى الحماد[1] يستدرج الإنجليز إلى المدينة ، وقسماً بقى فى الدور لا يشعر به أحد هناك .

وعندما اقتحمت فلول الأعداء المدينة صب عليهم الموت من تلك النوافذ المغلقة .

---

(١) قرية على النيل جنوبى رشيد .

الفصل الأول

كانت الليلة حارة جافة من ليالى أواخر مارس وكان الليل قد ولى ولم يبق على طلوع الفجر غير ساعات ، وكان الهلال قد احتجب منذ ساعات وراء حجب كثيفة من الغيوم المتلبدة فى جهة الغرب ، ولم يسمع أى حس ولاصوت فى الحماد التى وقفت عندها الحملة الإنجليزية تتربص[1]، ومن جهة الشمال كانت تقوم معسكرات الجنرال فريزر ، وكانت خطوات الحراس المتزنة تقطع السكون التام المستولى على تلك الجبهة ..

أما فى الجنوب فقد أقام مراد باشا البطل ، هو ورجاله المخلصون غير المنظمين الذين حاولوا أن يستفزوا العدو إلى القتال المباشر . ولكن محاولاتهم ذهبت هباء .. وفى تلك البقعة ساد السكون أيضاً كما ساد فى البقعة الأخرى . واستولى التعب على الحراس فناموا فى مراكزهم .. كان الجميع يغطون فى سبات[2] عميق تلك الليلة . وكان مراد باشا فى خيمته الخاصة مستغرقاً فى النوم من شدة التعب بعد سهر متواصل دام ليالى طويلة. كما نام حراسه إلى جانبه .

وفى ذلك السكون المخيم بدأت حركة هادئة فى خيام الجنرال فريزر .

---

(١) التربص : الانتظار .

(٢) السبات : النوم ـ من سبت والسبت هو الراحة .

وبدأت أمواج الأجسام البشرية تتحرك ببطء فى سكون الليل البهيم[1] ، وكانوا يقصدون خيمة مراد باشا ، فكانوا لا يتكلمون إلا همساً ، وهم يتقدمون بسرعة وهدوء ، فى سكون الفجر وصمته ، فكان سيرهم شبيهاً بزحف الأفاعى الهائلة .

وقال قائل منهم بهمس : اسمع يا سير ولنجتن دع الكابتن رسى يفاجىء الحراس وادخل أنت مباشرة خيمة مراد باشا فاقتل حراسه واقبض عليه .

وما أن انتهى الهمس حتى جد سير ولنجتن السير على رأس ستمائة من رجاله المختارين، وكان كل منهم يلبس قميصه حتى يمكنهم أن يميزوا بعضهم بعضاً حينما يختلطون بالأعداء فى أثناء المعركة ، ولم يكن يفصل بين معسكرات فريزر ومراد باشا سوى نحو ميل من الأرض السهلة المنبسطة ، وبينما كان القوم يتآمرون ويتوعدون ويدبرون الخطط ، كان أهل الحماد مستغرقين فى نوم عميق . .

وكان سير ولنجتن وجمعه المتحرك قد قطعوا نصف المسافة ، وكان من الصعب جداً تمييز القمصان البيضاء لشدة الظلام المخيم ، حتى ليخيل إلى الرائى أنهم أشباح ، ولم يبق أمامهم سوى نصف ميل أو أقل حتى يصلوا بزحفهم . هذا وقوم مراد باشا لا يزالون يغطون فى نومهم . . وفى تلك

---

(١) شديد السواد .

اللحظة تقدم شخص من الحراس فأيقظهم ، وامتدت يده القوية إليهم حارساً تلو حارس فهزتهم هزاً عنيفاً ، وهو يصيح وسط الظلام : هلموا ، استيقظوا ، فالعدو مقبل عليكم ليأخذكم على غرة[1] ويفتك بكم وأنتم نيام.

وقبل أن يتمكن الحراس من الاستيقاظ تماماً ، كانت اليد نفسها قد وصلت إلى الحرس الخاص لمراد باشا وهزته بشدة وعنف . وعلا الصوت ذاته وهو يقول : استيقظوا ، فقد وصل الإنجليز اليكم . وفى خيمة مراد باشا بدا نور ضئيل ، وكان الباشا مستلقياً على الأرض مدججاً بالسلاح كامل العدة ، فلما طرق الصوت سمعه وبدأت الحركة ، أفاق من نومه فى الوقت المناسب ، ووثب واقفاً فلم يجد أحداً معه فى الغرفة ، ولكنه لمح ظلا مبهماً لرجل طويل القامة يبرح الخيمة بسرعة زائدة ، فظن أنه فى حلم ، وأن ذلك المنظر لم يكن إلا كابوساً مخيفاً ، ولكنه وجد المعسكر قد عادت إليه الحياة . . وتجاوب نداء القتال ، وصلصلة السيوف وصهيل الخيل وأوامر الضباط تلقى فى كل جهة . . ولكنه وجد عبارات مكتوبة على الخيمة ، هذا نصها : « هجوم ليلى . فإن ستمائة رجل يزحفون عليكم ، وبينكم وبينهم الآن أقل من نصف ميل » ..

وكان السير ولنجتن قد أصبح على بعد ربع ميل ، فسمع بأذنيه هذه الأصوات كلها وشعر بحركة الجند وهم يتأهبون ، فعلم أن تلك المفاجأة التى دبرت بروية وبمنتهى التكتم قد فشلت ، وإذن فليس عليه إلا أن

---

(١) الغرة : الغفلة .

يرجع خائباً إلى معسكره ، إذ لم يعد فى وسعه اقتحام معسكر عدوه ، لأن ستمائة جندى لا يكفون لخوض موقعة حاسمة ، ولأن جنود مراد باشا يحاربون ببسالة وإقدام ، وارتدت الجنود كالأمواج إلى الخلف تجر أذيال الخيبة والفشل .

ولما وصل سير ولنجتن إلى المعسكر ثانياً ، اضطر أن يعترف أمام رئيس الحملة الجنرال فريزر بفشل المفاجأة التى كانت قد أعدت معداتها بنظام دقيق .

قال سير ولنجتن ، وقد بدا الغضب والتذمر على وجهه : « لقد كانت الخيام كلها فى الحماد تتحرك فلم أجرؤ على الهجوم ، لأننا كنا نعتمد فى الفوز على المفاجأة » . فاحتج فريزر وأخذ يصخب ، ويسب ويلعن ، وقال :

— ومن الذى أفشى لهم الخبر ؟

فزأر ولنجتن كالأسد الغاضب وقال : لابد أن الشيطان المقنع هو الذى أنذرهم .

وفى الناحية الأخرى من البلدة ، كان الرجل المدعو « المقنع » يتأهب للاختفاء بهدوء كما ظهر .

الفصل الثانى

فى اليوم التالى وقف فريزر داخل خيمته ، هو والسير ولنجتن وأركان حرب الحملة وهو يهدر [1] ويصخب كالبركان الثائر ، وكان يقطع الخيمة ذهاباً وجيئة ، ولم يجرؤ واحد على مفاتحته فى الكلام حتى تكلم وحده فقال : لقد فشلنا فى ست معارك الآن مع مراد باشا ويظهر أنه يتلقى إنذارات فى الوقت المناسب .

فقال السير ولنجتن : لقد كانت كلها مدبرة تدبيراً محكماً ، وكان رجالنا يسيرون صامتين كالأشباح فى ليل بهيم شديد الظلام ، ولكن فى كل مرة كان هناك من ينبئه بقدومنا إذ كنا نجد خيامه كلها فى حركة ، فكنا نضطر إلى التقهقر ، فمن غير إبليس أعطاه الإنذار ؟

— جاسوس أمهر منك وأشد حيطة !

فصاح أحد القواد :

— إنى أجزم بأن هناك عاملا خفياً يحرس حياة ذلك الرجل . إن قومه — كما أخبرنا أحد جواسيسنا — يتحدثون عن رجل طويل القامة

---

(١) هدر — يهدر = يردد الصوت

عريض المنكبين ، وبعضهم يدعوه بالمقنع ، وهم يظنون أن القوة التى تحميه قوة علوية ، ولكن يظهر أن أحداً لم يره ، فكأنه حقاً رسول من إبليس نفسه .

ولم يكد الرجل ينتهى من قوله حتى ساد الغرفة صمت رهيب ، فاصفرت الوجوه واضطربت الشفاه ، فرسم سير ولنجتن نفسه علامة الصليب . . إن أولئك الرجال الذين كانوا يتحدثون بذلاقة وعنف ، ويطربهم قتل الأبرياء ، غلبتهم الخرافات على أمرهم . . هؤلاء الذين يطربهم تعذيب الناس ، ذعروا وملكهم الخوف ، فرددت شفاههم المضطربة صلوات كاذبة طالباً للرحمة من الله الذى كانوا يعصونه كل يوم بأفعالهم .

وحين عاد فريزر إلى الكلام كان خافت الصوت فقال : « سواء أكان الذى أنذرهم أبليس أم غيره ، فهذا لا يهمنا . إنما الذى يهمنا هو أن ننفذ أوامر ملكنا ونتم الإستيلاء على مصر » . وصمت قليلا ثم قال : « ليس ينقصنا إلا أن يكون لنا داخل المدينة جواسيس مهرة، لكى يعرفوا كل الخطط التى تدبر » .

قال ذلك ونظر نظرة احتقار إلى الموجودين . فأجابه السير ولنجتن، بأن الجاسوس ٥٦٦ قد أرسل اليوم إشارة يقول فيها: إن «رشيد» ضعيفة جداً ، ويمكن الاستيلاء عليها ؛ إذ أن الإبطاء يمكنهم من جمع صفوفهم . .

وقد وصل إلى خبر آخر ، وهو أن محمد علي باشا قد صمم على الهرب إلى سورية ، بعد أن رأى ذلك الانتصار الباهر الذى أحرزناه فى الاسكندرية ودمنهور ، فهو الآن يحارب المماليك فى الصعيد . أضف إلى ذلك أنه يفكر فى إرسال عدد من الجيش إلى رشيد . وإنى متعجب لهؤلاء القوم الذين يقاومون جيشاً كبيراً وهم ضعفاء جداً إذ ليس لديهم ذخيرة ولا سلاح .

عند ذلك ظهر الإبتسام على وجهه وقال :

— هذه أخبار سارة جداً ، وعلى كل حال سوف تنتهى فى مدة قصيرة من هؤلاء القوم وبعدها تصير مصر من أولها إلى آخرها تابعة للتاج البريطانى .

وعند ذلك وقف الجميع إجلالا للتاج البريطاني .

الفصل الثالث

جلس محسن على كرسى منخفض ، وغطى وجهه بيديه ، وجلست أمه أمامه ، وقد لفت رقبتها بشالها من البرد ، وأخذ محسن يفكر تفكيراً عميقاً ، حتى أنه نسى أنه جالس مع أمه .. وراح يتصور الموقف ، فقد كان هذا اليوم محدداً لحفلة عرسه ، ولكن البلدة أخذت بقدوم العدو إليها ، فكان من جراء ذلك تأجيل العرس إلى ما بعد الموقعة .. لقد كانت وداد وهى من علية القوم وابنة أحد أشراف البلدة ، ذات عينين سوداوين ناعستين وشعر مسترسل على جبينها ووجه مثل البدر وسط السحاب .. أخذت هذه الصورة الجميلة تتراءى لمحسن وتسيطر على عقله وهو جالس فى الشرفة مع والدته .. وراحت الحوادث الماضية تكر أمامه . فقد كان ، بعكس أخيه إبراهيم ، خاملا لامكانة له فى القرية .. كان جالساً ذات يوم فى مزرعة فى الطرف الشرقى للمدينة يغنى أغنية شعبية ، فاستولى عليه النوم ، ولكنه قام فزعاً على صوت استغاثة ونباح كلب ، فوجد فتاة تجرى ويتبعها كلب ضخم الجسم ، فما كان منه إلا أن هجم على ذلك الكلب وضربه بعصاه حتى جعله يفر من أمام هذه الفتاة الحسناء ، وعند ذلك شكرته الفتاة ، وعرفته أنه الآن فى مزرعة أحمد بك عاصم والدها ، وعند ذلك تآلفت روحاهما وصار يقابلها كثيراً فى تلك المزرعة بدون علم والدها ، وكان لتلك الفتاة ابن عم يدعى «حسناً» مغرم

بها ، وطالما عرض عليها قلبه فكانت ترفضه بإباء وشمم . وقد أقسم ذلك الشاب أنه سينتقم منها في يوم من الأيام . ورابه خروجها كل يوم في وقت الغروب وتوجهها إلى الحقل منفردة بدون علم أحد من أهل المنزل . وذات يوم اقتفى أثرها فوجدها تتلاقى مع محسن بجانب الغدير ، وعلى حين غرة خرج من مخبئه ، وفاجأهما معاً ، ونظر إلى محسن نظرة احتقار وقال له : أيها السافل الدنيء ، ماذا تفعل في تلك المزرعة ؟

فقالت وداد :

— إنه في هذه الأرض بدعوة مني .

— لا عهد لي بأن الرجال يحضرون بدعوة النساء .. ما هذا إلا لص مجرم .. ولكن ما بالك تدافعين عنه !

ولم يخف ما كان عليه من حنق[1] شديد ، ولكن محسناً نظر والضحكة الهازلة لا تفارق فمه ، كما لم تفارقه نظرة الاحتقار .

عند ذلك تركهما حسن وذهب يعدو نحو المنزل ، فقالت وداد لمحسن :

— بالله عليك اذهب ، فإنه لا يلبث أن يرجع مع رجال المزرعة فيمسوك بضرر ..

واستجاب محسن لنصيحتها ومضى إلى منزله . وفي اليوم التالي ذهب هو ووالده إلى والد الفتاة وخطبها منه ، وحدد العرس في هذا اليوم ، ولكن الاحتفال به تعطل بمناسبة هجوم العدو لاحتلال رشيد .

---

(١) الحنق (بفتحتين) : الغيظ .

أفاق محسن من تأملاته على صوت والده يقول له : فيم تفكر ؟ .. لقد جند كل شبان البلدة ليذودوا[1] عن نسائهم وأطفالهم ، فما بالك جالساً فى المنزل ولم تخرج لتدافع عن بلدتك مع المدافعين عنها ؟ .. هل ستبقى طول حياتك ..

فقاطعته زوجته قائلة : لقد خرج إبراهيم وجند ، فليبق محسن معى فى المنزل .. إنى لا أستطيع ذلك .. إذ ماذا أصنع بعد ولدى .. وهل يلذ لى العيش فى الحياة .. لقد تجرد قلبك من محبتهما فتريد أن توردهما موارد التهلكة .

— لا تظنى ذلك أيتها الزوجة العزيزة ، فإننى لست أقل محبة لهما منك ، بل أنا أكثر منك وطنية .. أتفضلين حياة ابنك وموتنا نحن فى ذل الأسر ورق العبودية ، أم موته وحياتنا فى نعيم الحرية ؟ ..

وصمت فجأة لأن السكون الذى كان مخيما على المدينة ، قطعته أصوات أغنية شعبية وطنية وهتافات عالية .

حدث كل هذا ومحسن لم يتحرك من مكانه ، فقد كان لا يأبه لأحد فى الوجود ، وعاش طول حياته خامل الذكر ، فما الذى يجعله الآن يقوم ويتحمل كل هذه الأهوال .. لقد نظر إلى والده وهو يبتسم تلك الابتسامة الساخرة المستهترة التى اشتهر بها فى البلدة ، فما كان من والده إلا أن خرج من المنزل وهو يتمتم بكلمات تدل على الغضب والتذمر .

---

(١) ليدحروا العدو ويطردوه .

الفصل الرابع

جلس إبراهيم مع أمه فى الصباح، إذ كان يقوم بمهمة فى المدينة ، فسألته أمه قائلة : هل رأيت أخاك محسن ؟

فأجاب قائلا : لا . هل رأيته أنت ؟

أجابت : رأيته لحظة واحدة .

ـ وماذا قال ؟

ـ إنك تعرف محسناً . فإنه أبدى إعجابه بشجاعة المتطوعين فى شىء من الدعابة ، وقبل أن يبدى إبراهيم استياءه عادت الأم إلى الكلام فقالت :

ـ لا تلم محسن ، فهو كما خلقه الله .. إنه لا يبالى شيئاً .

ـ إنه لا يعنى إلا بملذاته وشهواته ، لقد سمعت أنه كان بالأمس مع عدد من الماجنين [1] يضحكون ولا يأبهون لتلك المحنة التى يجتازها البلد .

وقام الشاب ليذهب إلى عمله وكان ابراهيم من الشباب المتحمسين الذين ذهبوا إلى القتال ليمحوا العار عن الوطن .

---

(١) الماجن = غير المبالى . من مجن . والجمع مجان وماجنون .

ومدت الأم يدها نحو ابنها المفضل ، فجاءها ثانية وجلس عند قدميها وقبل يديها فقالت :

ـ أرجوك ياولدى ألا تقدم على عمل من أعمال الطيش ، ولا تتصرف تصرفاً تندم عليه حين لا ينفع الندم .

ـ لا تخافى يا والدتى ، فقد جاءتنا وعود بالمساعدة . . إننى حذر كالثعلب ، ولكن لن أثنى ركبتى للقوة الغاشمة . . إننى أقاتل عصابة السفاحين الذين انتهكوا حرمتنا ودنسوا حريتنا ، فإن الواجب على هو أن أخدم بلادى وأبوى .

ثم قبل أمه وغادر المنزل مسرعاً ، ولو استطاعت لأوقفته . لأن الخوف استولى عليها .

الفصل الخامس

لم يكن الجاسوس ٥٦٦ سوى قطان باشا المستوطن برشيد ، كان قطان باشا من أهل أرمنيا ، وعندما فقدت أرمنيا استقلالها حضر إلى مصر ، وتجنس بالجنسية المصرية واعتنق دين الإسلام .. ولكنه كان من أكبر المرابين فى المدينة ، فكان يخرج الأموال بفوائد فادحة حتى كرهه الناس ، ولذلك انعزل عنهم ، وعاش فى مزرعة فى الطرف الشرقى من البلدة ، وشيد لنفسه هناك قصراً كان يسكنه هو وابنته ..

كانت تلك الفتاة المسكينة لاتخرج من القصر ، وقد فقدت عطف أمها منذ كانت فى السابعة من العمر ، وهى الآن فى الثامنة عشرة .

حدث مرة أن احتاج طاهر بك عمدة البلدة إلى نقود لكى يسدد ماعليه من الدين الذى كان غارقاً فيه إلى أذنيه ، فلم يجد أحدا يلتجىء إليه غير قطان باشا الذى عرض عليه المال بفائدة قليلة ، وعندما حان وقت الدفع لم يجد طاهر بك ما يدفعه ، فذهب إلى دائنه يستمهله فأعطاه مدة أسبوع يدفع بعدها ما عليه من الدين .

وردت على قطان باشا إشارة من الحملة ، أنه لابد من وجود شخص فى منزل العمدة لكى يحضر لهم الأخبار والمؤامرات والخطط التى يعدها مراد باشا ، لأن كل هذه الأشياء فى عهدة إبراهيم ابن العمدة .

ودبر قطان باشا خطته ، إذ لا بد أن يستولى الانجليز على مصر لكى تنال أرمنيا استقلالها على أيديهم . هكذا كان الاتفاق بين قطان باشا والإنجليز .

وحينما حان الوقت لدفع الدين الذى على طاهر بك ، ذهب إلى قطان باشا ليستمهله فقال له قطان باشا :

— والله يا أخى إنى محتاج إلى المال ، ولذلك لا أستطيع إمهالك أكثر من ذلك ، وأملى أن تدفع دينك حتى لا أضطر إلى نزع ملكية الأرض وبيعها .

عند ذلك اصفر وجه طاهر بك وأخذ يرجو المرابى أن يمهله بعض الوقت ، ولكنه كان يضرب فى حديد بارد . وأخيراً انسابت الدموع من عينى الشيخ المهدم الذى وجد الفضيحة أمامه بسحبها الداكنة . فقال له قطان باشا :

— إننى أقترح عليك اقتراحاً أنت فيه الرابح ، فإن قبلته كان خيراً ، وإلا فسأبيع الأرض بالمزاد اليوم أو غداً ، وأستولى على الدار وأخرجكم منها .

فظهر البشر على وجه الشيخ المهدم ، وقال :

— لا خيب الله رجائى فيك أيها الصديق العزيز ، ودام عزك . . أرجوك أن تسرد على ذلك الاقتراح ، وهو مقبول بإذن الله تعالى .

قال المرابى :

— إذا رضيت أن تزوج ابنك من ابنتى — وهى كما تعلم على قدر كبير من الجمال — فإننى أرفع ما عليك من الدين والفائدة [1] .

---

(١) إلى هنا انتهى النص الحرفى لبداية القصة التى كتبها السيد الرئيس جمال عبدالناصر بقلمه عندما كان طالبا بالمدارس الثانوية فى عام ١٩٣٥ .

وسوف ترد هذه البداية مرة أخرى ولكن متداخلة داخل نسيج القصة الجديدة إبتداء من ص ٤٠ .

في سبيل الحرية

عبد الرحيم عجاج

في سبيل الحرية

تقديم للقصة

حاولت هذه القصة أن تلتزم باتباع نقط معينة ، رأيت أن أعرضها سلفاً توضيحياً لبعض الحقائق ، ولكن فى غير كشف لشىء من أحداث الرواية . وفيما يلى هذه النقط :

التاريخ الواقعى :

اهتمت القصة بأن توضح أحداث تاريخنا الوطنى فى أوائل القرن التاسع عشر فى إنصاف وفى اعتدال . ولذلك ستدور أحداثها الاجتماعية جنباً إلى جنب مع الأحدث التاريخية الحقيقية . وتقع حوادث القصة عام ١٨٠٧ أى عقب تولى محمد على حكم مصر بعامين ، ولكن مما لا شك فيه أن الناس الذين كانوا يعيشون هذه الفترة من التاريخ قد ارتبطت حياتهم بالأحداث التى مرت بهم فى الأعوام القلائل التى سبقت هذا التاريخ . فالرجل الذى عاش فى رشيد عام ١٨٠٧ كان يتمثل [1] أمام عينه وقتذاك مقدم المستعمرين الفرنسيين عام ١٧٩٨ ، ثم مقدم المستعمرين الانجليز عام ١٨٠١ ، ثم ثورة المصريين عام ١٨٠٥ إلى آخر هذه الأحداث القومية التى كان الناس يحيون فيها بقلوبهم وأذهانهم ودمائهم .

---

(١) يتصور

المكان الواقعى :

تدور حوادث القصة فى أماكن حقيقية متفرقة من وطننا شهدت أحداث المعارك كالاسكندرية وثغر رشيد ، وربوة « أبى مندور » العالية التى تجثم جنوبى الثغر ، وقرية «الحماد» التى تقع على فرع النيل على مقربة من رشيد . وعند ما دارت هذه القصة كان هناك كثير من المعالم والأبنية والقلاع التى انطمست [1] آثارها حالياً ، ولم يبق منها إلا بقايا أطلال قلائل . ولقد عنيت القصة بتوضيح أصل هذه المعالم وإظهار تاريخها مختصراً ومندمجاً مع حوادث القصة . فضريح «أبى مندور» مثلا له دوره الذى يتناقله الناس بين هذه الأحداث ، وبالمثل حصن رشيد ، ومسجد زغلول . الخ . وبذلك لم تبتعد القصة عن الصورة الخالدة التى ما زالت ترتسم فى أذهان الأجيال المتعاقبة من أهالى رشيد . ولقد عملت على زيارة هذه الأماكن ، واستيضاح تاريخها حتى تستكمل القصة عملها الفنى والتاريخى .

الدراسة الاجتماعية للقرن التاسع عشر:

حاولت القصة أن تقدم كلا من حوادثها التاريخية وشخصياتها الروائية داخل الإطار الاجتماعى الذى كان يجمع أحوال الناس ومعيشتهم فى هذه الفترة من التاريخ ، كأحوال التجارة والزراعة ونظام الزواج والمحافل ،

---

(١) امحت وتغيرت .

وأخبار المدن والثغور ، وطرق المواصلات . ثم تعرضت القصة لتطور الوعى القومى الذى بدا واضحاً فى الثورات الوطنية العديدة ، والتى تعد بحق أهم الملامح الاجتماعية التى سيطرت على أحوال الناس فى ذلك الوقت ، مثل ثورة المصريين ضد الفرنسيين عام ١٨٠٠ ، ثم ثورتهم ضد الوالى العثمانى عام ١٨٠٥ ، ثم بعض الثورات المحلية الأخرى كثورة دمنهور ضد « الألفى » عام ١٨٠٧ فقد كانت هذه الثورات هى حقاً حياة المصريين وقتذاك ، كما كانت بعضاً من العوامل والأحداث التى صنعت شخصيات هذه الرواية .

تكملة قصة السيد الرئيس :

التزمت القصة بجميع الشخصيات التى وضعها السيد الرئيس . كما أضافت بعض الشخصيات الحقيقية والخيالية بالقدر اللازم لتحريك حوادث القصة وتطويرها فى الاتجاه المرسوم لها . وبرغم أن هذه القصة احتوت على جميع الفصول والكلمات والشخصيات التى خطها السيد الرئيس بقلمه إلا أن الفصول الخمسة الأولى للقصة الأصلية لن ترد فى هذه الرواية بنفس الترتيب الذى جاءت به ، بل سترد مجزأة ومتداخلة ضمن نسيج القصة الجديدة ، وكان ذلك بقصد إظهار بعض الوقائع التاريخية السابقة لعام ١٨٠٧ ، وتمشيها مع تطور القصة .

وبعد فإنى آمل أن تصور هذه القصة بعضاً من الروح الوطنية الفياضة التى ملكت قلوب « الرشايدة » . . قلوب المصريين . . قلوب العرب . . فى هذه الحقبة من التاريخ التى كادت تتباعد عن أذهاننا بعزها ونصرها ، والتى امتد إليها قلم السيد الرئيس — محموداً — ليقيم صلات كريمة دقيقة بين مجد خالد وبين مجد حاضر .

عبد الرحيم عجاج

المراجع

١ — الجبرتى : عجائب الآثار (تاريخ الجبرتى) .

٢ — وزارة الحربية : الحملات الاستعمارية على مصر فى القرن التاسع عشر . المطبعة الأميرية ١٩٥٧ .

٣ — ادوار جوان : مصر فى القرن التاسع عشر . تعريب محمد مسعود . القاهرة ١٩٢١ .

٤ — جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث . مطبعة الهلال . القاهرة ١٩٢٥

٥ — صالح جودت : مصر فى القرن التاسع عشر . مطبعة الشعب . القاهرة ١٩٠٤

٦ — محمد رفعت ومحمد حسونة : تاريخ الإسلام ومصر الإسلامية ١٩٥٧ .

٧ — جمال عبد الناصر: فى سبيل الحرية . خمسة فصول .

٨ — دراسة على الطبيعة: تمت فى زيارة رشيد ، والحماد ، وأبى مندور.

٩ — عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية (الأجزاء الثلاثة الأولى)

10. A short history of Islamic Egypt
(*Walter Briets*)

11. Secret history of the English occupation of Egypt. (*Baldwin*).

تواريخ الأحداث الواقعية

(فى اوائل القرن التاسع عشر)

تدور حوادث القصة فى عام ١٨٠٧ ، بعد ثورة المصريين وعزلهم الوالى التركى وتعيينهم لمحمد على والياً على مصر عام ١٨٠٥ . . وفيما يلى مجمل الأحداث التى لازمت زمن القصة ، وكذلك الأحداث التى سبقت عام ١٨٠٧ وارتبطت بحوادث القصة .

قبل عام ١٨٠٧

١ — يوليو ١٧٩٨ (٩ سنوات قبل ١٨٠٧) .

استولت الحملة الفرنسية على رشيد .

٢ — ٢٠ مارس ١٨٠٠ (٧ سنوات قبل ١٨٠٧) .

نشبت ثورة القاهرة (الثانية) ضد الفرنسيين فأحرق كليبر بولاق . وكان قد تولى الحملة بعد رحيل نابليون . وعلى أثر ذلك قتله سليمان الحلبى فى يونيو عام ١٨٠٠ .

٣ — مارس ١٨٠١ نزلت الحملة الإنجليزية بقيادة « ابر كرمبى » فى « أبى قير » لمعاونة الأتراك فى طرد الفرنسيين ، واستولت على رشيد (بمعاونة قوة تركية) فى ١٦ أبريل ١٨٠١ . ثم جلا الفرنسيون عن مصر فى نفس العام (٦ سنوات قبل ١٨٠٧) .

٤ — ١٦ مارس ١٨٠٣ (٤ سنوات قبل ١٨٠٧)

اضطر الإنجليز للجلاء عن مصر وقد مكثوا بها عامين .

٥ — عام ١٨٠٥ (عامان قبل ١٨٠٧)

ثار الشعب المصرى وتمكن من عزل الوالى التركى وتعيين محمد على والياً على مصر ، وبدأت مصر تتخلص من النفوذ الاستعمارى الأجنبي .

حوادث عام ١٨٠٧

— احتلال الاسكندرية :

(ا) ٦ مارس أبحر فريزر من صقلية — وقابلته عاصفة بحرية شطرت حملته قسمين .

(ب) ١٦ مارس وصل الشطر الأول إلى الاسكندرية وأخذ يضرب أبراجها بالمدفعية .

(جـ) ٢١ مارس دخل الإنجليز الاسكندرية وقد سلمها لهم الخائن أمين أغا حاكمها .

٢ — التقدم الى رشيد :

(ا) ٢٩ مارس تحرك الجيش الإنجليزى من الاسكندرية بقيادة « ويكوب » ومعه ٢٠٠٠ مقاتل إلى رشيد واستولى على مرتفعات « أبى مندور » (قبل وصول الشطر الثانى للحملة فى ٣٠ مارس) .

(ب) ٣١ مارس (اليوم التاريخى لرشيد) دخلت القوات الإنجليزية رشيد وقد أعد لهم أهالى البلدة المفاجأة التى قضت عليهم فقتل «ويكوب» وقتل معه مائة وسبعون وجرح مائتان وخمسون ، وأسر مائة وعشرون (أى أكثر من ربع القوة) وتقهقر الباقون مذعورين إلى الاسكندرية .

٣ — حصار رشيد :

(ا) ٣ أبريل تحرك « ستيوارت » من الإسكندرية على رأس أربعة آلاف مقاتل وأحد عشر مدفعاً واحتل كلا من « أبى مندور » و « الحماد » .

(ب) ٧ أبريل بدأ حصار رشيد وضربها بالمدافع من « أبى مندور » واستمر حصارها اثنى عشر يوما ألقى فيها على رشيد أكثر من ثمانمائة قنبلة ، ولم تسلم البلدة .

(ج) أما محمد على « باشا » فلقد ظل منشغلا بالمماليك فى الصعيد حتى ١٢ أبريل

٤ — معركة « الحماد » وفك حصار رشيد :

(ا) ٢٠ أبريل وصلت القوات المصرية من القاهرة و شتبكت مع الإنجليز فى معركة « الحماد » وأحاطت بجنود العدو وقتلت نصفهم وأسرت النصف الباقى وبذلك وقعت حملة الحماد كلها فى أيدى المصريين .

(ب) ٢٢ أبريل اضطر « استيوارت » لرفع الحصار عن رشيد وانسحب إلى الاسكندرية .

٥ — الجلاء :

(ا) مايو ١٨٠٧ عرض فريزر الصلح على « محمد على » وقد نزلت به الضربات فى رشيد وفى الحماد .

(ب) ١٩ سبتمبر ١٨٠٧ جلا الإنجليز نادمين عن البلاد فى نظير استرجاع أسراهم وجرحاهم .

شخصيات الرواية

(التى وضعها الرئيس جمال عبد الناصر)

١ ـ مراد باشا : قائد حامية رشيد عام ١٨٠٧

٢ ـ طاهر بك : عمدة رشيد وحاكمها [١] .

٣ ـ إبراهيم طاهر : ابن حاكم رشيد ، وكاتم أسرار « مراد باشا » قائد الحامية .

٤ ـ محسن } أخوان ، وهما ولدا « جاد الله » أحد
٥ ـ إبراهيم [٢] } أعيان البلد .

٦ ـ وداد عاصم : بنت أحمد بك عاصم من أعيان البلدة — مخطوبة لمحسن جاد الله .

٧ ـ قطان باشا : مستوطن بالمدينة — تجنس بالجنسية المصرية واعتنق الإسلام .

٨ ـ بنت قطان باشا : (وستعرف فى هذه القصة باسم : درة)

٩ ـ الرجل المقنع : شخصية مختفية تلعب دوراً وطنياً هاما ضد الأعداء .

---

(١) ذكر الجبرتى أن حاكم رشيد كان يعرف باسم « لى بك السلانكى » ، ولكن سيرمز إلى اسمه فى هذه القصة بطاهر بك .

(٢) سيعرف ابراهيم أخو محسن فى هذه القصة باسم « ابراهيم جاد الله » تمييزاً له عن « ابراهيم طاهر » ابن حاكم البلدة .

١٠ - فريزر : قائد الحملة الإنجليزية المعتدية (وهو شخصية تاريخية حقيقية) .

١١ - ولنجتن : من قادة الإنجليز .

١٢ - برسى : من قادة الإنجليز .

شخصيات إضافية

١ - الشيخ حسن كريت : نقيب الأشراف برشيد (وهو شخصية تاريخية حقيقية . كان له فضل كبير فى رفع الروح المعنوية والمقاومة الشعبية للبلدة) .

٢ - جابر الرشيدى : من أهالى رشيد

٣ - جميلة الرشيدى : بنت جابر الرشيدى .

٤ - الجنرال ويكوب
٥ - الجنرال ستيوارت
٦ - الكولونيل ماكلود
} شخصيات حقيقية لقادة الإنجليز (من التاريخ) .

نار في القلوب

١

يوم لا ينسى ...

... هذا اليوم العابس أوله ، للباسم آخره فى عام ١٨٠٧

قال الإنجليز : هذه مصر ، استقلت عن الترك وحكمت نفسها ، وهى على هذا لقمة سائغة تمضغ وتبتلع . إذ ماذا تستطيع ملايينها الثلاثة أن تصنع أمام أسطول بريطانيا وجيشها المدرب العظيم ومدافعها وقنابلها !

قال الإنجليز: هذه هى الفرصة قد سنحت لتحقيق حلم قديم ، وأمل طالما جاش بنفوس الإنجليز القدماء .

.. وما هى إلا أسابيع حتى رست على شاطىء الاسكندرية أساطيلهم ، ودوت القذيفة الأولى من قذائف البحرية البريطانية ، وهم يظنون أنها مسمار كبير فى نعش الحرية والكرامة المصرية ، وعن قليل سوف تكفن هذه الحرية وتوسد فى قبرها ، وينهال عليها التراب .

أصبحت الاسكندرية ذات الماضى الحافل ، تتقد ناراً .. وتشتعل

ناراً رأى المصريون على ضوئها أفظع صور الظلم والجشع والطغيان .

وهام أهل الاسكندرية على وجوههم ، وخرجوا بأطفالهم ونسائهم لا يعرفون مصيرهم ، وبيوتهم من ورائهم تعصف بها عواصف الجحيم .

نار فى كل مكان . نار فى المدينة . ونار فى القلوب .

وكان اليوم العابس هو ١٦ مارس ١٨٠٧

ولم تكد تغيب شمس هذا اليوم ، ويحتجب قرصها الملتهب وراء اليم ، حتى سطر القدر بيده على صفحة الأحداث أغرب الأهوال والمصادفات . . وكان التاريخ الذى يحمله ذلك اليوم هو أول مصادفة غريبة .

ففى نفس التاريخ ١٦ مارس ولكن من عام ١٨٠٣ ، سبق أن جلا الانجليز عن حصون الاسكندرية وقلاعها ، وسلموها كاملة إلى خورشيد باشا حاكم الثغر ! . كانوا قد أتوا فى عام ١٨٠١ ليعاونوا الأتراك فى طرد الفرنسيين [1] ، وجلا الفرنسيون فى ذلك العام .

---

(١) حملة « أبركرمبى » التى نزلت فى مصر عام ١٨٠١ وانسحبت فى ١٦ مارس ١٨٠٣ ، أى قبل حملة « فريزر » بأربعة اعوام كاملة (تاريخ الحملات) .

ولـكن لم يجل الإنجليز إلا بعد عامين كاملين .

كانوا يأملون أن يطول بهم المقام أبد الدهر ! ولـكن سارت الحوادث على غير ما يشتهون .

فـكان أن حملوا عصاهم على كاهلهم ورحلوا عن البلاد .

واليوم يعودون ! وفى نفس التاريخ ! بعد أربعة أعوام كاملة لـكى يحققوا الحلم الذى لا يفارق أعين المستعمرين القدامى .

* * *

وجلس « الجنرال فريزر » — قائد الحملة — فى غرفة القيادة بسفينته تحت صورة الأسد البريطانى . . . وراح يفـكر فى هذا الاتفاق التاريخى الغريب ! ولم يدر الجنرال ، أيتفاءل بهذه المصادفة الغريبة ، أم يتطير [1] بها . . والحقيقة أنه كان يحس بينه وبين نفسه بالضيق والتشاؤم . فمنذ أن كلِّـف قيادة الحملة والنذر السيئة تأبى إلا أن تبلغه . .

فهو يتذكر كيف هبت عليه عاصفة هوجاء ، شطرت حملته نصفين فى عرض البحر ، فى اليوم الذى غادر فيه صقلية إلى الإسكندرية . . ولقد

---

(١) يتطير طيرة = يتشاءم .

تطير الرجل منذ أول وهلة بهذه الريح العاتية التى فصلت باقى سفنه عنه (١)

واليوم جاءه رسول ينبئه بوفاة محمد الألفى زعيم المماليك وصنيعة الانجليز . واغتم «فريزر» لذلك غماً شديداً ، وكاد يدركه الخبال (٢) من فرط الصدمة ؛ فقد كان يعقد رجاء كبيراً حول الألفى وجنوده .. فمنذ برهة قصيرة كان يتحدث مع قادة الحملة ويذكر لهم أن للحملة بقية كبيرة فى البر . وكان يقصد بهذا المعنى جيش الألفى .. إذ كانت خطة الانجليز أن يتقدم الألفى بجيشه أمامهم يمهد لهم الاستيلاء على القطر وهم يشدون أزره من الخلف . وبذلك يتلقى المماليك أثقل صدمة ، ويقع على عاتقهم أفدح الخسائر . وعندئذ يسهل على الانجليز ازدراد اللقمة السائغة .. وحينما يتم لهم النصر الزائف لايفوتهم أن يتحدثوا طويلا عن التضحية .. التضحية بآخر رجل لديهم .. من رجال المماليك !

ومن أجل ذلك كاد «فريزر» يجن وهو يستمع إلى النبأ الشؤم .. وسأل الرسول متجهما :

— مات الألفى ؟ كيف مات ؟!

---

(١) لم تصل باقى السفن الى الاسكندرية إلا فى نهاية مارس ، وبعد أن أرسل (فريزر) جيشه لغزو رشيد (تاريخ الحملات) .

(٢) الخبال (بفتحتين) فساد العقل.

— مات وحده ياسيدى .

فغضب « فريزر » وصرخ :

— هذا الخائن . مَن أمره أن يموت الآن ؟

وتعجب الرسول من أمر الرجل ، وراح يحكى لهم كيف انتظرهم « الألفى » طويلا بدمنهور . فلما تأخر مجيئهم رحل عنها إلى الجيزة فأصابته الحمى الخبيثة ، وهناك وافته منيته (١) .

وتابع « فريزر » حديثه :

— لقد دفعنا للألفى كثيراً ، والآن يتركنا ويموت ! على أية حال نحن على أتم الاستعداد لأن ندفع لغيره .

. . كانت عقيدة الإنجليز أن الذهب يشترى كل الذمم . لقد بيع «الألفى» وهو مملوك صغير إلى مراد بك بألف أردب من القمح ، ولذلك سمى بالألفى (٢) . وقد كان كل حاكم من حكام مصر العثمانيين والمماليك صورة من «محمد الألفى» فى نظر الإنجليز ! يباع فى صغره بالقمح، ويشترى فى كبره بالذهب .

---

(١) المنية : الموت (٢) إدوار جوان

واقد نجحت عقيدتهم المعوية وأفلحت مع خائن آخر هو «أمين أغا حاكم الاسكندرية . واشتروا ذمته بالأصفر الرنان . فلم يلبث أن سلم الثغر الآمن .. وعند مافتحت أبواب السفن أمام جنود الانجليز اندفعوا يهبطون فوق الدرج الممدودة إلى البر فى انطلاق وجنون .. وكانوا أشبه بالمارد الحبيس الذى انطلق من سجن ضيق إلى فضاء رحيب . وراحت أقدامهم تدنس [1] الثرى الطيب .

وسلم الخائن « أمين أغا » جنود الحامية للعدو ، فبعث بهم أسرى إلى مالطه [2] ، ومع ذلك فقد بقى هناك نفر من المجهولين الأحرار ممن أبت نفوسهم الضيم [3] . واستعصت على الهزيمة ، فأخذوا يتربصون بالعدو الدوائر لكى يذيقوه من مرارة كأسه ، واستطاعت جماعة منهم أن تحرق مركبين كبيرين من سفن «فريزر» .

وكان الليل ساجياً هادئاً عندما صعد لهب المركبين إلى أجواز السماء .. وأحس «فريزر» بغصة فى حلقه .. وقد وقعت عيناه على هذا المشهد من خلال الكوة الصغيرة فى غرفته . وجمدت يده على كأس الخمر التى يشرب نخبها احتفالا بنصره الغادر الرخيص .

---

(١) تلوث
(٢) حوادث واقعية (ادوارجوان) .
(٣) الظلم .

. . وكان يجلس قبالته الأميرال «نوس» قائد البحرية وقد ملكته نشوة الخمر والزهو معاً ، حين نجحت مدفعيته فى إصابة أكبر أبراج الاسكندرية عند الغروب .. كم كان منظر المركبين المحترقين أليماً ومؤثراً فى نفوسهم المتبلدة . أما الحريق الذى شب فى البرج الكبير ، وفى دور الاسكندرية الوادعة ، فكان مثاراً لغبطتهم وهنائهم .

وبدا الشاطىء المقدس من بعيد صامتاً رهيباً . تهدر الأمواج عند أقدامه ، وترتفع النيران فوق هامته .

ولحظ القادة الجاسون قبالة الجنرال ما عليه كبيرهم هذا من هم وتوجس ! ! وتكلم « فريزر » وخرج صوته ضعيفاً متهدجاً من بين شفتيه :

— لا أدرى ماذا يخبىء لنا القدر على أرض الفراعنة .. لقد مات الألفى الذى كنا نعتمد على رجاله ، وحرق المصريون سفينتين من سفننا[1] ، وأبطأ عنا شطر الحملة الثانى ، وأظن عددنا ليس كافيا إزاء المقاومات الشعبية المتوقعة من الأهالى المصريين .

واستطرد الجنرال حديثه وهو يدق المنضدة بيده مؤكداً أهمية قوله :

---

(١) حوادث واقعية (محمد مسعود) .

— لكننا سنسعى جاهدين لتحقيق مهمتنا بكل الأساليب وبكافة الحيل. فمصر منا تعنى ثلاثة أمور : الهرم ، والنيل، والبحر الأحمر.. ويعنى الهرم التحف والآثار والذهب ، ويعنى النيل الخير والرفاهية .. أما البحر الأحمر فإننا عازمون على إخضاعه للتاج البريطانى ، فهذا البحر ما هو إلا تتمة لنهر التايمز إلى الهند الخصيبة ، ومن أجل ذلك دمرنا أسطول نابليون فى أبى قير منذ تسعة أعوام، ومن أجل ذلك نزلنا بجيوشنا فى مصر منذ ستة أعوام ، ومن أجل ذلك نعود إليها اليوم .

ولعل (فريزر) كان يرغب بحديثه هذا أن يطرد الوساوس عن نفسه أكثر من أن يثير الحماسة فى نفوس البحارة .. وعلى أثر هذا الحديث اقترح الأميرال (لوس) قائد البحرية أن يشرب الجميع نخب التاج البريطانى . ووقف القادة ورفعوا كؤوسهم وألقوا بنظرة التحية إلى صورة الأسد البريطانى التى تعلو رؤوسهم .. ولكن حدث ما أعاد التوجس إلى نفس (كبير القراصنة) ورجاله حتى بدا كأن القدر يعاند المغتصبين على طول الطريق فى كل كبيرة وصغيرة .. فقد هبت الريح من جديد عاصفة غاضبة ، وضربت بذيلها نوافذ غرفة القائد الصغيرة ففتحتها عنوة، وأطفأت الشموع والقناديل ، ومدت يدها إلى صورة الأسد البريطاني الغاضب فنزعتها من فوق الجداز وألقت بها على الأرض .. وفزع

الرجال ، وأحس (فريزر) الغصة فى حلقه من جديد ، وعاوده التطير والتوجس .

وجاء الخادم وأوقد الشموع وأمسك بالصورة يعيدها سيرتها الأولى، وبدا الأسد البريطانى مكتئبا غاضبا ، يعبر عن حقد الإنجليز الأسود على العالم الآمن .

وراح الأميرال (لوس) يرسل دعاباته وثرثرته حتى يطرد هذا الشىء الخفى الذى كان يجثم فوق قلوبهم، وبدأ يسأل الجنرال عن الخطوات الحربية التالية . عندئذ أخرج (فريزر) من درج المنضدة أمامه قائمة طويلة وجعل يتفرس الأسماء التى بها ، ثم أوقف أصبعه على كلمة (العميل رقم ٥٦٦) وقال

— هذا الرجل سيكون ذا نفع خطير عندما نتقدم لغزو رشيد ، وعندما تقع كل ثغور القطر فى أيدينا يسهل علينا الاستيلاء على كل أرض الفراعنة .

وعلى ذكر أرض الفراعنة ، لم يفت الأميرال (لوس) أن يرسل بدعابة متكلفة فقال :

— إن الإنسان لايجزع إذا وافته منيته فوق هذه الأرض، فسوف تحنط جثته وتدفن كمومياء فى أحد الأهرامات الكبيرة .

ولـكنه عاد يصحح حديثه قائلا :

— لا لا ياجنرال ، أستحلفك بربك إذا مت أن تنقل رفاتي إلى انجلترا . فذلك أحب إلى نفسي ! !

وراح يعب الخمر من جديد . كان الأميرال (لوس) لا يفيق من الخمر حتى يعود ليثمل ثانية .

وهنا قال له (فريزر) :

— لا تجزع يا أميرال فمثلك لن يموت فى قبر بالبر . بل يغلب على ظنى أنك ستموت فى دن من الخمر .

.. يا إلهى هل كان هؤلاء الرجال المغتصبون يستشفون الغيب؟ أم هل كانت أرواح الشهداء الأبرياء تحوم حول رؤوسهم وتستمطر عليهم غضب السماء ؟ أم أن روحا من أرواح الفراعنة الهائمة ســـاءها أفعالهم وأقوالهم تلك الليلة فعزمت أمرها على شىء ؟

لم يدر أحد حقيقة الأمر ؛ ولـكن من الغريب أن كل كلمة فاه بها الرجال الليلة تحققت مع الأيام ! ولو أتيح « لفريزر » أن يطلع على الغيب يومذاك لرأى نفسه بعد ستة أشهر عائداً وحده الى انجلترا مثقلا بالخيبة ، وقد فقد كل قادة الحملة الذين حضروا اجتماع الليلة ، ولم يصحب منهم إلا رجلا واحداً . حمله جثة مكونة فى دن من دنان الخمر ، وكانت الجثة للأميرال (لوس)[1]

(١) مات الأميرال «لوس» فى نهاية الحملة بالحمى الخبيثة واحتفظوا بجثته فى برميل من براميل الروم حتى لا تنتن (ادوز جوان).

واستمهل القدر نهاية الغاصبين ، وتركهم طويلا يستمتعون بالنصر الزائف ، فزحف جنودهم إلى الثغر حتى وصلوا أسوار المدينة ، وانطلقت شرذمة منهم إلى (أبى قير) وعزلوا الثغر الآمن ، وقطعوا عن أهله المسالمين كل سبيل للنجاة ، وأخذ (فريزر) يفكر فى الزحف إلى رشيد ، وكلف من يقابل بها الجاسوس ٥٦٦ ليوافيه بأخبار تحصينات البلدة وخططها حتى يستولى عليها غدراً وغيلة ، كما فعل بالاسكندرية الآمنة .

• • وبدأ اللهب ينحسر عن أطلال المدينة •

واخذت النار المتوهجة يخبو أوارها ، ولكن ظلت هناك نار مستترة لاتخمد ولا تنطفىء • نار حامية السعير • نار أقوى وأذكى من أى نار .

فهى نار فى القلوب .

الجاسوس ٥٦٦

٢

وقع خبر سقوط الاسكندرية على أهالى رشيد وقعاً سيئاً أثار فى نفوسهم كوامن الحزن والتوجس . فلقد ظلت «رشيد» مسرحاً للحوادث الدامية منذ أكثر من تسعة أعوام .. وراحت البلدة تهمس بقرب مجىء المستعمرين الجدد ، وقد أصبحوا فى « أبى قير » على مسيرة أقل من نهار واحد من رشيد .. بلدتهم الوادعة التى تقف كالحارس الأمين عند طرف النيل الخالد .. وكان العالم يأمل أن تبزغ شمس القرن الجديد على عهد أكثر بشراً وأملا .. ولكن يبدو أن المستعمرين من قراصنة أوربا الجاثمة على الضفة الأخرى للبحر الكبير كانوا قد عقدوا العزم على أن يسلبوا الأهلين فى شواطىء أفريقيا الحبيبة كل أمن وطمأنينة ..

وعادت إلى القوم ذكرى احتلال الفرنسيين بلدتهم منذ تسعة أعوام فى عام ١٧٩٨ بقيادة نابليون بونابرت، وما حل بالبلد الأمين على أيديهم من عذاب وآلام . لقد انتهكوا الحرمات ، ودمروا الدور الآمنة ، ودنسوا بسنابك خيولهم المساجد وبيوت الله ، وما زالت أعمدة جامع زغلول[1] تشهد كيف جعلوا منها مرابض لخيلهم .. وجاء من بعدهم

---

(١) — مازالت بقايا هذا المسجد برشيد . ويرجع تاريخ المسجد إلى القرون الوسطى وقد كان يحتوى على ٣٦٥ عمودا بقدر أيام السنة (رواية الأهالى فى رشيد) .

مسجد زغاول برشید

الإنجليز بقيادة « ابر كرمبى » واحتلوا البلدة عام ١٨٠١ منذ ستة أعوام .. ولم يكن هؤلاء المعتدون أقل ضلالا من أشباههم الذين سبقوهم ، فقد جلبوا معهم نفس النحس والخراب ، ومنذ أربعة أعوام جلا هؤلاء المعتدون .. واليوم يعودون .

.. يعودون ليحرقوا المدن والقرى ، ويشيعوا السلب والنهب .. ويأتوا على الزرع والضرع[1] .. ويبقروا بطون الحوامل .. ويحرقوا أطراف الرجال أحياء ويقطعوا الرءوس .. ويبيعوا الولدان .. وتتبعهم عواصف الخراب أينما حلوا ، وأينما أقاموا فى كل سهل أو جبل ..

وهرع[2] أشراف المدينة وأعيانها يتوافدون على بيت طاهر بك الحاكم .. وكان الرجل يحاول أن يبدو هادئاً ، ولكن كان من السهل على العين الفاحصة أن تلحظ على جبينه أمارات القلق والتوجس .. إذ كانت حامية المدينة لا تزيد على بضع مئات من الجنود ، المزودين بالأسلحة الخفيفة القليلة[3] .. وماذا تستطيع أن تفعل هذه الأسلحة البدائية إزاء مدافع الحصار الثقيلة التى جلبها القراصنة معهم من جزرهم النائية .. هذه الجزر التى تصدر الدمار إلى أنحاء العالم الآمن ..

---

(١) الضرع : الثدى . وهو كناية عن البهائم والماشية .

(٢) أسرعوا وكأنهم يحثون بعضهم بعضاً . كقوله تعالى « وجاءه قومه يهرعون إليه » .

(٣) ٧٠٠ جندى « تاريخ الحملات » .

لقد بعث الرجل يطلب من « القاهرة » أن ترسل إليه إما الرجال والمؤن .. وكان يدرى أكثر من غيره أن القاهرة ستعت عن كل مطالبه .. إذ كان كل همهم فى العاصمة البعيدة أن يبعثو والرجال إلى الصعيد .. حيث انشغل « محمد على باشا » بمقاتلة ا حتى يخلو له عرش القطر من كل منازع ..

ولم يتلق طاهر بك من القاهرة رداً على طلبه سوى قة رسلوا إلى حاميته بضع مئات من الجنود العثمانيين ..

ولقد رفض الحاكم هذا العرض فى غير تفكير أو تردد .. جيداً ما عليه جنود الأتراك من فساد وسوء خلق .

وشجعه على هذا الرفض الشيخ « حسن كريت » نقيب البلدة . وقال الرجل للقوم وقتذاك وعلى وجهه أمارات الجد والحم

— هذه أرض مصر ، وأمامكم نيل مصر .. ورشيد ثغر ولن يدافع عن وطننا مصر إلا رجال من مصر . لا أتراك ولا نحن الذين سنحمى رشيد بأيدينا ، لا بأيدى غيرنا .. ففيها زرع وبيوتنا .. ولا بارك الله فى زرع أو بيت لا يفديه أهله ..

ووافق القوم عندئذ ألا يوكل أمر الدفاع عن رشيد إلا رشيد .. وأثارت هذه الكلمات الحارة فى إبراهيم ابن الحا

وبأسه ، فذهب يمدو إلى مراد باشا قائد الحامية ليضع خطة الدفاع عن البلدة بأبناء البلدة القلائل .. كان إبراهيم ابن الحاكم يعمل كاتم السر للحامية ..

وعندما همّ إبراهيم بالخروج استوقفه الشيخ كريت قائلا :

— يا بنى ، إنى سأكتب إلى الشيخ « عمر مكرم » نقيب الأشراف فى القاهرة أن يبعث إلينا بالمؤن والسلاح بدلا من أن يرسل إلينا بجنود الأتراك الذين يعيثون فى الأرض فساداً .

وعندئذ أجابه إبراهيم طاهر ملوحاً بيده فى يأس :

— إن جاءنا سلاحهم ومؤنهم فهى خير وبركة ، أما إذا لم تصلنا فوالله سيكون سلاحنا أيدينا ، ومؤونتنا صبرنا ..

واندفع الرجل يهرول إلى سبيله .. والقوم تشخص[2] أبصارهم خلفه ..

... وانفض القوم من دار الحاكم والحماسة تملأ عليهم قلوبهم ، وانتشرت معهم هذه الحماسة إلى ذويهم ، وفاضت من هذه الدار على كل أنحاء البلدة ، وكأنها الدوائر تكبر وتنتشر على صفحة الماء ، على أثر إلقاء حجر صغير فى اليم !

---

(١) عاث عيثاً : أفسد إفساداً .

(٢) شخص بصره : فتح عينيه فلا يطرفهما .

وخلا طاهر بك الحاكم إلى نفسه .. ولكن القلق مازال يساور قلبه . فقد بلغه أن « محمد على باشا » يعد العدة للهرب إلى « سوريا » ، بعد أن أصبح يواجه عدوين بدلا من عدو واحد .. أحدهما يدهمه من الشمال من البحر ، والآخر يؤرقه من الجنوب فى البر ..

وكان يعلم كذلك أن الإنجليز يعملون كل ما فى وسعهم للبحث عن خليفة للألفى .. وقد أرسلوا بالفعل رسلهم إلى زعيم المماليك فى دمنهور[1] وكان ثمة أمر آخر يقلق نفس الرجل ، ويؤرقه الليل وأطراف النهار ..

فقد حدث مرة أن احتاج إلى نقود لكى يسدد ما عليه من الدين الذى كان غارقاً فيه إلى أذنيه ، فلم يجد أحداً يلتجىء إليه غير أحد المرابين ويدعى « قطان باشا » الذى عرض عليه المال بفائدة قليلة ، وعندما حان وقت الدفع لم يجد « طاهر بك » ما يدفعه ، فذهب إلى دائنه يستمهله ، فأعطاه مدة أسبوع يدفع بعدها ما عليه من الدين .

والآن ماذا يعمل وقد حل ميعاد السداد ولم يدبر أمر المال ! ومن أين يجىء المال وكل الأعمال التى يسهم فيها بنقوده بالقاهرة معطلة وموقوفة منذ حرب الباشا مع المماليك فى الصعيد . إن قلبه يحدثه بأمور خطيرة ستلوح فى هذه المرة ، فالقاهرة لن تبعث إليه لا بمؤن ولا بأسلحة ، ولا حتى

---

(١) عثمان باشا حسن . « الرافعى » .

بماله الشخصى ! .. ولم يجد الرجل سوى حل واحد أمامه .. هو أن يعاود الاعتذار إلى « قطان باشا » الثرى لعله يمهله من جديد ..

وحينما حان الوقت لدفع الدين الذى على طاهر بك ، ذهب إلى قطان باشا ليستمهله فقال له قطان باشا :

— والله يا أخى إنى محتاج جداً إلى المال ، ولذلك لا أستطيع إمهالك أكثر من ذلك ، وأملى أن تدفع دينك حتى لا أضطر إلى نزع ملكية الأرض وبيعها . عند ذ'' اصفر وجه طاهر بك وأخذ يرجو المرابى أن يمهله بعض الوقت ، ولكنه كان يضرب فى حديد بارد ، وأخيراً انسابت الدموع من عينى الشيخ المرم الذى وجد الفضيحة أمامه بسحبها الدا كنة...

وقال له قطان باشا :

— إنى اقترح عليك اقتراحاً أنت فيه الرابح ، فإن قبلته كان بها ، وإلا فسأبيع الأرض بالمزاد اليوم أو غداً ، وأستولى على الدار وأحرمكم منها . فظهر البشر على وجه الشيخ المهدم وقال :

— لا خيب الله رجائى فيك أيها الصديق العزيز ودام عزك. أرجوك أن تسرد على ذلك الاقتراح ، وهو مقبول بإذن الله تعالى ..

فقال المرابى :

— إذا رضيت أن تزوج ابنك من ابنتى ، وهى كما تعلم على قدر كبير من الجمال ، فإننى أرفع ما عليك من الدين والفائدة ..

ولم يكن الجاسوس ٥٦٦ سوى « قطان باشا » .. المستر برشيد .. وكان قطان باشا من أهل أرمنيا ، وعندما فقدت أ استقلالها حضر إلى مصر ، وتجنس بالجنسية المصرية واعتنق الإسلام ، ولكنه كان من أكبر المرابين فى المدينة ، فكان ي الأموال بفوائد فادحة حتى كرهه الناس ، ولذلك انعزل عنهم و فى مزرعته فى الطرف الشرقى من البلدة ، وشيد لنفسه قصراً بسكنه هو وابنته.

كانت لك الفتاة المسكينة لا تخرج من القصر ، وقد فق عطف أمها منذ كانت فى السابعة من العمر ، وهى الآن فى الث عشرة ..

وقد وردت على « قطان باشا » إشارة من الحملة البريطانية لا بد من وجود شخص فى منزل الحاكم لكى يحضر لهم الأخ والمؤامرات والخطط التى يعدها « مراد باشا » ، لأن هذه الأش فى عهدة إبراهيم بن الحاكم ..

ودبر قطان باشا خطته ، إذ لا بد أن يستولى الإنجليز على مصر لـ تنال أرمنيا استقلالها على أيديهم . هكذا كان الاتفاق بين قط باشا والإنجليز .

ومن أجل ذلك عرض الباشا على طاهر بك الحاكم أن يزوج ابنته درة من إبراهيم ابنه « كاتم أسرار » مراد باشا قائد الحامية ؛ ولم يشك طاهر بك فى أمر الباشا وعرضه ..

ولم يدر بخلده أنه يوشك على أن يدخل بيته عميلا رسمياً للأعداء الذين لا يبعدون عن البلدة أكثر من مسيرة نهار واحد .

وعندما خرج الرجل من بيت الباشا جعل يفكر فى شىء واحد .. هو كيف يقنع إبراهيم ابنه بتقبل هذا الزواج ! !

الثائر

٣

كان إبراهيم طاهر يعانى عقدة من أمر زواجه !

فقد كان يرغب فى الزواج من فتاة أحس حيالها حباً وعطفاً .. ولكن كان فى حياة هذه الفتاة ما يحول دون زواجها فى الوقت الراهن من أى رجل .. كان فى حياتها قصة مرارة ومحنة خلفها الاستعمار الأخير قبل أن يرحل نادماً خاسراً .. استعمار الفرنسيين دعاة الحرية الزائفة ..

كانت الفتاة تدعى « جميلة الرشيدى » .. وكانت جميلة كاسمها.. حزينة كالمحن التى حاقت بها .. لقد قتل الفرنسيون كل أسرتها ذات يوم منذ سبع سنوات .. أما أبوها فقد هرب من أيديهم ، ولكنه اختفى ولم يعد .. إلى اليوم ..

وتعيش جميلة الآن فى بيت طاهر بك .. ويراها إبراهيم كل يوم قريبة من عينيه ، ولكنه كان يشعر بحواجز عميقة تبعدها عنه .. حواجز المحن !

وعندما تقدم إبراهيم ليطلب يدها ، كان يدرى ردها قبل أن تقوله :

— لن أتزوج حتى يعود أبى ..

ولم يلح فى الأفق أمل ينبىء عن عودة الغائب .. ومرت الأيام والسنون ولم تفقد جميلة الرجاء .. بل كانت تنتظره مساء كل يوم عند حافة النافذة ، تترقب ظهوره من وراء الأفق البعيد بهامته المديدة ، وعينيه العطوفتين ..

وكان إبراهيم طاهر يترقب نفس الرجل كل يوم عند أبواب البلدة .. ولكن دون أن يبلغه نبأ ولا خبر !

ويئست رشيدة من مقدم الرجل الشهم ، وكاد ييأس إبراهيم، ولكن لم تيأس جميلة !! ..

ومن حين لآخر كانت جميلة تذكر قصتها المؤسية لمن يسمع لها ، فإن لم تجد من يسمع راحت تذكرها لنفسها .. كانت قصتها مؤسية مروعة حقاً .. قصة البشرية التى يدميها الاستعمار الوحشى ..

منذ سبعة أعوام ، وفى يوم حزين من أيام الربيع ..

فى ٢٠ مارس عام ١٨٠٠ على وجه التحديد .. فهو تاريخ لا يغيب عن وعى الفتاة الصغيرة البائسة ، كما لا يغيب عن وعى كل من أقام فى « القاهرة » يومذاك ..

وكانت أسرة « جابر الرشيدى » والد جميلة تقيم فى القاهرة ذلك التاريخ ، بل كانت هذه الأسرة جزءاً من أحـــداث تاريخ القاهرة .

فقد اندلعت الثورة قوية عارمة من قلب (بولاق)[1] ضد « مدعى الحرية » . وعلى رأسهم (كليبر) الذى خلف نابليون وكان قد رحل عن مصر مع رحيل القرن الثامن عشر .

وفى (بولاق) دبر المصريون أمر الثورة ، وأقاموا بها سراً معامل للبارود ومصانع للأسلحة والذخيرة .

وكان (جابر الرشيدى) أحد أعضاء (لجنة الثورة) السرية ، وكان يدير فى الظاهر مصنعاً للباد (الطرابيش) . أما الجزء الخافى للمصنع فكان يعد قدور البارود .

وفى اليوم المحدد للثورة انفجر البارود فى قلب الجنود الفرنسيين ، وأرسلت بولاق عليهم الرصاص والقنابل .

واستمرت الثورة شهراً لا تخمد ولا تضعف .

عندئذ عمد (كليبر) إلى أسلوب المغول ، وعاد بالبشرية قروناً نحو البربرية فأحرق بولاق ، وأضرم بدورها النار . . فراح لهيبها يمتد فى كل مكان ، وتهاوى بيت (الرشيدى) . وماتت زوجه وصغاره ، ونجا الرجل البائس وابنته (جميلة).. نجا من محنة النار لتواجهه من جديد

---

(١) الرافعى

فى مكان آخر .. كأنَّ الرجل على موعد مع المحن أينما سار . فقد انتقل إلى (مصر القديمة) ومعه ابنته ، وغادر (بولاق) أطلالا تنعى من بناها . ومر شهران على هذا الحادث المروع وهدأت الثورة ، أو كادت .. هدأت لتبدأ أهوال جسام جديدة. فقد قتل (سليمان الحلبي) كليبر قائد الفرنسيين إنتقاماً لأمة العرب من آثامه [1] وعادت وحشية الفرنسيين ومجازرهم

وخرجت (جميلة) ذات صباح من بيت أبيها تبتاع شيئاً لتعود فلا تجد لأبيها أثراً .. إلا أثر خيط من الدم القانى يقطع الدار من داخلها إلى خارجها ، ولم تدر ماذا فعل الآثمون بأبيها . فقد دخل عليه الجنود الفرنسيون أثناء غيابها فوجدوه يصنع قهوته بيده، فهجموا عليه، ونكلوا به شر تنكيل . إذ فقأوا عينه وشووا وجهه حياً بالموقد الذى كان يصنع عليه القهوة . كانوا قد عرفوا أنه عضو فى لجنة (الثورة) وحسبوا أنه على اتصال بمقتل (كليبر) ، وانصرفوا من الدار ومعهم الرجل المعذب .

وهكذا ألفت (جميلة) نفسها وحيدة فى القاهرة . بل وفى الحياة بأسرها . وهامت على وجهها كالمجنونة . وكانت لا تبلغ من العمر إلا

---

(١) ١٤ يونيو ١٨٠٠ (٢١ من المحرم ١٢١٥) . الجبرتى

ثلاثة عشر عاما . ونصح لها أهل الحى أن تعود إلى قومها فى رشيد . فهناك تبعد عن مآسى القاهرة الدامية . وهناك لن تعدم من يحنو عليها . وراحت تضرب فى الأرض على غير هدى حتى التقت بقافلة ترحل إلى الشمال فرحلت معها وظلت تبكى طول الطريق ، ولم تكن وحدها فى البكاء ، فكل المآقى[1] التى التقت يومها بعينيها ، كانت تنضح بالدموع الثخينة ، مثلها .

ولم تكد القافلة تعبر أبواب المدينة من الشمال حتى استوقف رجالها الشرطة الفرنسيون العتاة ، وأعملوا التفتيش والتخريب فى أمتعتهم القليلة الباقية .. وسمعت (جميلة) أحدهم يسأل صاحب القافلة فى عربية ركيكة :

— هل رأيتم رجلا مشوه الوجه يدعى (جابر الرشيدى) ؟ . .

وغاص قلب (جميلة) فى قدميها وعرفت أنهم يبحثون عن أبيها الذى فر من بين أيديهم بالأمس . كان أبوها هذا جريئا .

وتحركت القافلة ، وأحست (جميلة) البرودة فى قلبها وجسدها ، إن أباها حى يرزق ، وسوف يعوه اليها يوما.. واقتربت القافلة من بلدة (الحماد) قبيل (رشيد) ، وهناك قابلت مصادفة (طاهر بك) صديق أبيها

---

(١) مؤق العين طرفها والجمع آماق . ونفس الشىء مآق ،والجمع مآق .

ومعه ابنه (ابراهيم) ، وكانا عائدين هما أيضا من القاهرة إلى بيتهم (رشيد) .

فقد كان (إبراهيم) طالباً بالأزهر الشريف ، وكان يتردد على بيت أبيها ببولاق .

وأغلق الفرنسيون الأزهر ، فقد كان (سليمان الحلبى) طالباً به . وعاد إبراهيم وأبوه إلى رشيد ، واصطحبا معهما (جميلة) واستقبلتهما أم إبراهيم بالعطف والحب ، وظلت تعيش معهم فى أسرتهم . فقد قالت لها أم ابراهيم يومذاك :

— (ياجميلة) لقد عاش كل أبنائى الذكور ، ولكن لم تعش لى بنت واحدة . فأنت من اليوم ابنة لى ، وأنا أمٌّ لك ، حتى يعود أبوك .

ولم يعد أبوها حتى اليوم . ولكنها وجدت قبسا[1] من رحمة السماء فى هذا البيت الكريم .

وكان طاهر بك يعلم بأمر هذه القصة ، ويدرى رغبة ابنه إبراهيم فى الزواج من (جميلة) كما يعرف إعراض الفتاة عن الزواج قبل عود أبيها .

---

(١) القبس : شعلة من نار .

ولاحت أمام عينيه كل هذه الأمور ، كما لاح معها شبح الفضيحة . إن جميلة لا يهمها الزواج من إبراهيم أو من غيره بقدر ما يهمها عودة أبيها . أما طاهر بك فيهمه أمر زواج إبراهيم إبنه ، من ابنة قطان باشا .

ولم يجد الرجل أمامه إلا حلا واحداً . هو أن يطلع إبراهيم ابنه على كل الحقائق ، على الدين وماله المفقود فى القاهرة وتهـــديد قطان باشا .

أما إذا ظل إبراهيم متعلقاً بحبه اليائس لجميلة . فعندئذ يضطر لأن يبوح له بسر لا يعرفه إبراهيم عن جابر الرشيدى والد جميلة .

عندئذ قد يرضى إبراهيم !

زواج مخادع

٤

.. كانت العصور الوسطى قد خلفت هذه الأسوار والحصون التى كانت تحيط برشيد فى شكل مستطيل من ثلاث ضلوع . أما الضلع الناقصة من الشرق فكان ينوب الخيل الخالد عنها فى حراسة المدينة ، ورد غارات المعتدين من هذا الجانب..

وعند كل زاوية من زوايا المستطيل كان يربض حصن أشم . ففى أقصى الشمال يقف حصن قايتباى الذى بدأت تعرفه المدينة عند الحملة الفرنسية باسم قلعة جوليان أو قلعة الحجر نسبة إلى حجر رشيد [1] . وإلى الغرب وقف حصن العبد . وكان الحصن متشحاً بالسواد . ولعل تسميته جاءت منتسبة إلى منظره . أما فى الجنوب فكان حصن أبى مندور الذى كان يتحكم فى مدخل البلدة الرئيسى ، عند نهاية الطريق المؤدى إليه من الاسكندرية فى الغرب ، ومن القاهرة فى الجنوب . لقد كان هذا الحصن

---

(١) أمر بانشاء هذا الحصن السلطان قايتباى فى عام ٨٧٦ هجرية (١٤٧٢ ميلادية) وعرف فى عهد الحملة الفرنسية باسم قلعة جوليان ، وعثر الفرنسيون بداخله على حجر رشيد الذى كان له الفضل فى حل رموز الهيروغليفى ، وما زالت بقايا هذا الحصن قائمة حتى يومنا هذا على ضفة النيل شمال رشيد .

أم قلاع المدينة عند ما دارت حوادث هذه القصة . وشاء القدر أن يؤدى هذا الحصن واجبه قوياً خالداً فى الوجود ، قبل أن ينمحى إلى العدم ، وقد اكتملت حوادث القصة .

ورغم ضخامة هذه الحصون ومناعتها فإن (إبراهيم) ابن طاهر بك الحاكم وكاتم أسرار الحامية كان له رأى خاص فى موقف هذه الحصون من الدفاع . وكان رأيه يخالف « مراد باشا » قائد الحامية . « فمراد باشا» يرغب فى الانتفاع بهذه القلاع فيجعل منها مراكز الدفاع عن المدينة ، فيوزع فيها رجال الحامية بالتساوى لصد أى هجوم يشنه المعتدى من أى اتجاه . وكان الدفاع داخل الحصون هو العقيدة العسكرية الشائعة فى ذلك العهد البعيد . أما إبراهيم فكان يلمح بثاقب نظره تطوراً بعيداً فى الأفق، فهذه الحصون لن تكون إلا هدفاً ممتعاً لمدافع الحصار الثقيلة التى اصطحبها الإنجليز المعتدون معهم من بلادهم التى تتفنن فى الشر والدمار . وجلس (مراد باشا) يستمع إلى رأى إبراهيم فى مقر القيادة . داخل حصن أبى مندور ، وكان الباشا يعجب بإبراهيم ويجعل منه محط ثقته وسره . فتحدث إليه قائلا :

— إنى أعقل رأيك يا إبراهيم ، ولكن ما العمل إذن !

وأجابه (ابراهيم) فى هدوء واتزان :

— إن أمراً مازال يلح على خاطرى من تاريخ حروب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن قلبى ليحس فيه النصر والهداية .

فابتسم الباشا وقال:

— هات ما عندك يا إبراهيم .

فأجاب إبراهيم :

— أرى أن نهجر هذه الحصون ، ونشرع فى حفر الخنادق أمام رشـــيد ، كما فعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى غزوة (الخندق) أمام (المدينة المنورة) ، وقد كتب الله له النصر على المشركين ، وأرى أن نجعل خنادقنا فى هذه الربوة العالية تجاه (أبى مندور) .

وأشار بيده إلى الربوة العالية التى تجثم جنوبى رشيد ، تحف بجنباتها النخيل ، وتشرف حافتها على النيل الخالد ، وتتحكم فى الطريق المؤدى لمدخل البلدة .

ثم أكمل حديثه :

— سنجعل خطوط دفاعنا تأتلف من هذه الخنادق لحكمة واحدة ؛ فالخندق المحفور لا تنال منه نيران المدافع بقدر ما تنال من الحصون المشيدة .

وأعجب الباشا بالفكرة ، ووافق عليها . وهكذا وضعت رشـ
سطراً فى (تكتيك[1]) الحرب الحديثة وهى لاتدرى .

وظل ابراهيم يشرح وجهات نظره ، ويدبر الخطط آمناً مطمئنا ، ا
عدد الحامية القليل ، وعتادها الساذج .

وعند ما كاد يفرغ من أمره جاءه رسول من أبيه يستدعيه لمقابلة

وفى الطريق ظل (ابراهيم طاهر) يسأل نفسه : ترى لأى
استدعاه أبوه فى هذه الساعة ؟

ولقد خطرت على ذهنه جملة أفكار مختلفة وهو يهبط ربوة (أبى مند
المرتفعة فى طريقه إلى بيت أبيه وسط البلدة . . إلا أن أمر زواجه
(درة) ابنة قطان باشا ، كان أبعد ما يفكر فيه وما يتصوره
يكن يتوقع أن زفافه بعد أيام قلائل . . بل ولم يكن يتـ
أى إنسان فى رشيد أن المدينة ستحتفل بزواج ابن حاكمها فى غضـ
الأسبوع .

وفوجىء ابراهيم بالأمر ، ولكنه أحس رغبة أبيه الملحة فى
الزواج ، ووجد نفسه فى حيرة من أمره .

---

(١) لفظ أجنبى بمعنى علم وضع الخطط العسكرية .

ولمح أبوه حيرته وتردده فاضطر أن يحكى له أمر الدين والفضيحة التى تهدد حياته .. وأرتج[1] على ابراهيم فى بادىء الأمر ، وصمت لسانه واتجه خاطره إلى (جميلة الرشيدى) .. وأدرك أبوه ما يدور فى ذهنه فقال له :

— إننى أعلم رغبتك فى الزواج من (جميلة) . ولكنى سأخبرك بشىء ما كنت أحب أن أذكره على لسانى لأحد .. إن (جابر الرشيدى) لن يعود إلى رشيد حتى ولو كان حياً يرزق ! وإذا كنت فى شك من قولى فاطلب من (ابراهيم جاد الله) سميك وصديقك ، أن يطلعك على ما سمعه فى دمنهور عند ما كان أهلها يقاومون حصار (الألفى) .

كان (ابراهيم جاد الله) شاباً ثائراً متحمسا . . وكان سمياً وصديقا لإبراهيم بن طاهر بك الحاكم ، وكانا لا يفترقان أبداً ، ولا تراهما البلدة إلا معا ، وقد اجتمع قلباهما على حب الوطن ، وحمايته من كل غاصب أو مغير .

---

(١) أرتج الباب = أغلقه . وارتج عليه أى اطبق عليه الفكر ، كما يرتج الباب .

(٢) أى يحمل اسما يوافق اسمك . وفى قوله تعالى « هل تعلم له سمياً » ، أى نظيراً يستحق مثل اسمه .

وكان قد حدث منذ ثمانية أشهر فى دمنهور واقعة خطيرة فقد هد المدينة محمد الألفى — زعيم المماليك — وضرب الحصار حولها ليخضعها لنفوذه ، ويجعل منها مقراً لقواته . كان الألفى يناوىء (محمد على) ويأمل فى الاستيلاء على حكم مصر بتشجيع الإنجليز والعثمانيين ، ورفض دمنهور التسليم إليه ، وظل يحاصرها شهرين ويضربها بالقنابل . فتطوع نفر كثيرون من البلاد المجاورة لنجدتها والانضمام إلى أهلها البواسل. وكان أن سافر (ابراهيم جاد الله) متطوعا على رأس عدد من شباب رشيد لكى يشتركوا مع أهل دمنهور فى الدفاع عن بلدتهم ضد المملوك الغاصب .

وكتب الله لدمنهور النصر فى النهاية ، وارتد عنها (الألفى) خائباً ورحل مقهوراً إلى الجيزة . وهناك وافته منيته قبل أن يصل الانجليز بحملتهم إلى الاسكندرية بأربعين يوما [1] .

وعاد (ابراهيم جاد الله) إلى رشيد ليستقبله أهلها بالحفاوة والتمجيد وفى عودته حمل سراً محزناً من دمنهور . فقد عرف هناك أمراً عن (جاد الرشيدى) والد جميلة وصديق والده الشيخ جاد الله .

---

(١) حاصر (محمد الألفى) دمنهور فى يوليو ثم فى اغسطس ١٨٠٦ واستمر حصاره لها شهرين (الرافعى — الجزء الثالث)

وكتم السر فى نفسه لسبب لا يعلمه إنسان إلا هو .

فلما ذهب اليه صديقه ابراهيم طاهر ليستفسر منه عن أمر الرجل الغائب لم يتحدث معه طويلا واكتفى بأن قال له :

— ماسمعته من والدك يا إبراهيم هو الحق ، ولكن أستحلفك بحق صداقتنا ألا تسألنى المزيد .

وظهر على وجهه ألم كبير .

ولم يحاول ابراهيم طاهر أن يحدثه بشىء جديد فى هذا الأمر. فكان يعرف خلق زميله حق المعرفة .

وعاد ابراهيم طاهر لأبيه ، وقبل الزواج . قبله فى غير فرح أو ابتهاج ، على غير عادة الناس عند مايقبلون على زواجهم .

وفى ذات أمسية من أواخر مارس شاهد أهل البلدة جملين كبيرين مزينين يحملان من فوقهما (تختروانا) جميلا [1] قد جلست بداخله أجمل نساء البلدة وأثراهن . ووقف التختروان أمام بيت الحاكم حيث انطلقت الزغاريد والأهازيج [2]

ودخلت درة البيت الجديد لتؤدى المهمة الآثمة التى أوعز بها أبوها إليها ؛ وأقنعها بها بشتى وسائل الإقناع والإغراء . وقد رحبت الفتاة

---

(١) التختروان : هودج من الخشب المحلى بالصدف يستعمل لنقل العروس.

(٢) ضرب من الأغانى ـ ومفردها هزج .

« ومن فوق الجملين « تختروان » جميل ، جلست بداخله
أجمل نساء البلدة وأثراهن »[1]

(١) الصورة لمشهد مجسم من المتحف الزراعى بالقاهرة .

كذلك بهذا الأمر ؛ إذ كانت قد كرهت العزلة واشتاقت نفسها للمغامرة . ولم تكن نفسها التى طبعت على الجمود والإنطواء فى قصر أبيها الكبير تمنعها من خيانة البلدة التى عاشت طويلا فوق ثراها .

وكانت « درة » تدرك أن كل ساعة تمر بها ، لها قيمتها الكبيرة فى الأيام التالية .. فراحت من أول دقيقة تعقد صلاتها الطيبة بأهل البيت مثل « جميلة الرشيدى » ، وأم إبراهيم ، ثم طارق أصغر إخوة إبراهيم . أما إبراهيم نفسه فكان عليها أن تتودد إليه وأن تجذبه إلى نفسها بحيث تحصل منه على كل ما تريد قبل آخر ليلة من شهر مارس ..

فقد كان هذا هو اليوم الذى حدده « فريزر » للاستيلاء على رشيد غدراً وغيلة ، بكل حيلة أو سبيل ، ولو أدى ذلك إلى عقد زيجات مخدعة ..

وفى اليوم التالى للفرح الكبير الذى تمّ فى بيت الحاكم ، تحركت قوة غاشمة من أبى قير تحت إمرة القائد «ولنجتن» لتتربص الدوائر بالمدينة الوادعة .. واضطرت القوة للوقوف عند الحافة الجنوبية لربوة أبى مندور العالية ، وقد احتلت الحامية المصرية أطراف الربوة من الشمال ، وحفرت بها الخنادق ، وعزمت أمرها على الاستماتة فى الدفاع عن البلدة الحبيبة .. عند طرف النيل الخالد ..

وكان أفراد الحامية قليلى العدد .. ولكنهم كانوا أقوياء الإرادة .

السلطان المقنع

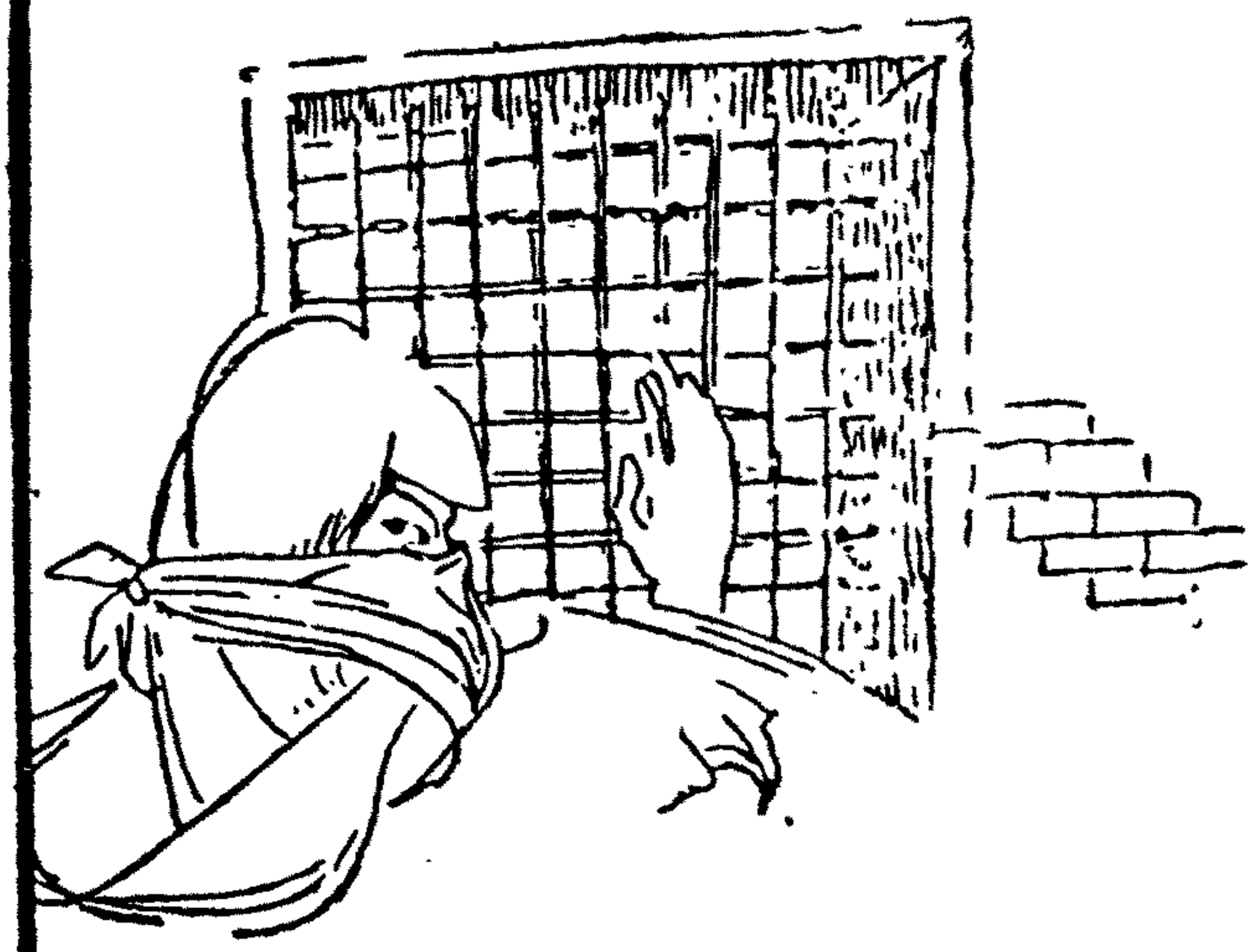

٥

وجاء يوم ٢٩ مارس ..

وكان الليل قد ولى ولم يبق على طلوع الفجر غير ساعات ، وكان الهلال قد احتجب منذ ساعات وراء حجب كثيفة من الغيوم المتلبدة[1] فى جهة الغرب ، ولم يسمع أى حس ولا صوت فى أبى مندور التى وقفت عندها الحملة الإنجليزية تتربص . ومن جهة الجنوب كانت تقوم معسكرات الجنرال « فريزر » ، وكانت خطوات الحراس المتزنة تقطع السكون التام المستولى على تلك الجهة ..

أما فى الشمال فقد أقام مراد باشا البطل .. هو ورجاله المخلصون غير المنظمين الذين حاولوا أن يستفزوا العدو إلى القتال المباشر . ولكن محاولاتهم ذهبت هباء ، وفى تلك البقعة ساد السكون أيضاً كما ساد فى البقعة الأخرى ، واستولى التعب على الحراس فناموا فى مراكزهم . . كان الجميع يغطون فى سبات عميق تلك الليلة وكان مراد باشا فى خيمته الخاصة مستغرقاً فى النوم من شدة التعب بعد سهر متصل دام ليالى طويلة كما نام حراسه إلى جانبه .

وفى ذلك السكون المخيم بدأت حركة هادئة فى خيام الجنرال «فريزر» .

---

(١) المتجمعة .

وبدأت أمواج الأجسام البشرية تتحرك فى ببطء ، فى سكون الليل البهيم وكانوا يقصدون خيمة مراد باشا فكانوا لا يتكلمون إلا همساً ، وهم يتقدمون بسرعة وهدوء فى سكون الفجر وصمته ، فكان سيرهم شبيهاً بزحف الأفاعى الهائلة .

وقال قائل منهم بهمس : « اسمع ياسير ولنجتون ، دع الكابتن برسى يفاجىء الحراس ، وادخل أنت مباشرة خيمة مراد باشا فاقتل حراسه واقبض عليه .

وما إن انتهى الهمس حتى جد «ولنجتن» فى السير على رأس ستمائة من رجاله المختارين وكان كل منهم يلبس قميصه الأبيض حتى يمكنهم أن يميزوا بعضهم بعضاً حينما يختلطون بالأعداء فى أثناء المعركة ، ولم يفصل بين معسكرات « فريزر » ومراد باشا سوى نحو ميل من الأرض السهلة المنبسطة ، وبينما كان القوم يتآمرون ويتوعدون ويدبرون الخطط كان أهالى أبى مندور مستغرقين فى نوم عميق . . .

وكان سير « ولنجتون » وجمعه المتحرك قد قطعوا نصف المسافة ، وكان من الصعب جداً تمييز القمصان البيضاء لشدة الظلام المخيم ، حتى ليخيل إلى الرائى أنهم أشباح ، ولم يبق أمامهم سوى نصف ميل أو أقل حتى يصلوا بزحفهم ، هذا وقوم مراد باشا لايزالون يغطون [1] فى نومهم .

---

(١) ينامون نوماً عميقاً ، وغطيط النائم هو نخيره .

وفى تلك اللحظة تقدم شخص من الحراس فأيقظهم . وامتدت يده القوية إليهم حارساً تلو حارس ، فهزتهم هزاً عنيفاً ، وهو يصيح وسط الظلام ، هلموا استيقظوا فالعدو مقبل عليكم ليأخذكم على غرة ويفتك بكم وأنتم نيام .

وقبل أن يتمكن الحرس من الاستيقاظ تماماً ، كانت اليد نفسها قد وصلت إلى الحرس الخاص لمراد باشا وهزته بشدة وعنف ، وعلا الصوت ذاته وهو يقول : استيقظوا ، فقد وصل الإنجليز إليكم .. وفى خيمة مراد باشا بدا نور ضئيل وكان الباشا مستلقياً على الأرض مدججاً بالسلاح كامل العدة ، فلما طرق الصوت سمعه وبدأت الحركة ، أفاق من نومه فى الوقت المناسب ووثب واقفاً فلم يجد أحداً معه فى الغرفة ، ولكنه لمح ظلا مبهماً لرجل طويل القامة يبرح الخيمة بسرعة زائدة ، فظن أنه فى حلم ، وأن ذلك المنظر لم يكن إلا كابوساً مخيفاً، ولكنه وجد المعسكر قد عادت إليه الحياة .. وتجاوب نداء القتال وصلصلة[1] السيوف وصهيل الخيل وأوامر الضباط تلقى فى كل جهة . ولكنه وجد عبارات مكتوبة على الخيمة ، هذا نصها :

« هجوم ليلى . فان ستمائة رجل يزحفون عليكم وبينكم وبينهم الآن أقل من نصف ميل» .

---

(١) الصلصلة : الصوت المضاعف .

وكان السير (ولنجتن) قد أصبح على بعد ربع ميل فسمع بأذنيه هذه الأصوات كلها وشعر بحركة الجند وهم يتأهبون . فعلم أن تلك المفاجأة التى دبرت بروية وبمنتهى التكتم قد فشلت ، وإذن فليس عليه إلا أن يرجع خائبا إلى معسكره إذ لم يعد فى وسعه اقتحام معسكر عدوه ، لأن سبعمائة جندى لا يكفون لخوض موقعة حاسمة ، ولأن جنود مراد باشا يحاربون ببسالة وإقدام ، وارتدت الجنود كالأمواج إلى الخلف تجر أذيال الخيبة والفشل .

ولما وصل سير « ولنجتن » إلى المعسكر ثانيا اضطر أن يعترف أمام رئيس الفرقة بفشل المفاجأة التى كانت قد أعدت معداتها بنظام دقيق .

قال سير «ولنجتن» وقد بدأ الغضب والتذمر على وجهه : لقد كانت الخيام كلها فى أبى مندور تتحرك فلم أجرؤ على الهجوم لأننا كنا نعتمد فى الفوز على المفاجأة ، فاحتج رئيس الغرفة وأخذ يصخب ويسب ويلعن وقال :

— ومن الذى أفشى لهم الخبر ؟

فزأر (ولنجتن) كالأسد الغاضب وقال : لابد أن الشيطان المقنع هو الذى أنذرهم .

وفى الناحية الأخرى من البلدة كان الرجل المدعو (المقنع) يتأهب للاختفاء بهدوء كما ظهر .

* * *

وفى اليوم التالى وقف رئيس الجيش داخل خيمته ، هو والسير ولنجتن وأركان حرب الحملة ، وهو يهدر ويصخب كالبركان الثائر ، وكان يقطع الخيمة ذهابا وجيئة ، ولم يجرؤ واحد على مفاتحته فى الكلام حتى تكلم وحده فقال :

— لقد فشلنا فى ست إغارات حتى الآن على مراد باشا ؛ يظهر أنه يتلقى إنذارات فى الوقت المناسب .

فقال السير (ولنجتن) :

— لقد كانت كلها مدبرة تدبيراً محكما . وكان رجالنا يسيرون صامتين كالأشباح فى ليل بهيم شديد الظلام . ولكن فى كل مرة كان هناك من ينبئه بقدومنا إذ كنا نجد خيامه كلها فى حركة ، فكنا نضطر إلى التقهقر ؛ فمن غير إبليس أعطاه الإنذار ؟

— جاسوس أمهر منك وأشد حيطة .

فصاح أحد القادة :

— إنى أجزم بأن هناك عاملا خفيا يحرس حياة ذلك الرجل . إن قومه — كما أخبرنا أحد جواسيسنا — يتحدثون عن رجل طويل القامة عريض المنكبين ، وبعضهم يدعوه بالمقنع ، وهم يظنون أن القوة التى تحميهم قوة علوية . ولكن يظهر أن أحداً لم يره . فكأنه حقا رسول من إبليس نفسه .

ولم يكد الرجل ينتهى من قوله حتى ساد الغرفة صمت رهيب . فاصفرت الوجوه واضطربت الشفاه ، فرسم سير (ولنجتن) نفسه علامة الصليب . إن أولئك الرجال الذين كانوا يتحدثون بذلاقة وعنف ويطربهم قتل الأبرياء غلبتهم الخرافات على أمرهم . . هؤلاء الذين يطربهم تعذيب الناس ذعروا وتملكهم الخوف ، فرددت شفاههم المضطربة صلوات كاذبة طلبا للرحمة من الله الذى كانوا يعصونه كل يوم بأفعالهم .

وحين عاد رئيس الجيش إلى الكلام كان خافت الصوت ، فقال :

— سواء أكان الذى أنذرهم إبليس أم غيره فهذا لايهمنا . إنما الذى يهمنا هو أن ننفذ أوامر ملكنا ونتم الاستيلاء على مصر .

وصمت قليلا ثم قال :

— ليس ينقصنا إلا أن يكون لنا داخل المدينة جواسيس مهرة ، لكى يعرفوا كل الخطط التى تدبر .

قال ذلك ونظر نظرة احتقار الى الموجودين. فأجابه السير (ولنجتن) بأن الجاسوس ٥٦٦ ، قد أرسل اليوم إشارة يقول فيها «إن رشيد ضعيفة جداً ويمكن الاستيلاء عليها ويحرضنا على الإسراع ، إذ أن الإبطاء يمكنهم من جمع صفوفهم » .

— وقد وصل إلىّ خبر آخر، وهو أن محمد على باشا قد صمم على الهرب إلى (سوريا) بعد أن رأى ذلك الانتصار الباهر الذى أحرزناه فى الاسكندرية، فهو الآن يحارب المماليك فى الصعيد . . أضف إلى ذلك أنه لم يفكر فى إرسال عدد من الجيش إلى (رشيد) . وإنى متعجب لهؤلاء القوم الذين يقاومون جيشا كبيراً وهم ضعفاء جداً ، إذ ليس لديهم ذخيرة ولا سلاح .

عند ذلك ظهر الابتسام على وجهه وقال :

— هذه أخبار سارة جداً . وعلى كل حال سوف ننتهى فى مدة قصيرة من هؤلاء القوم وبعدها تصير مصر ، من أولها إلى آخرها ، تابعة للتاج البريطانى .

وعند ذلك وقف الجميع إجلالا للتاج البريطانى .

أما (واجتن) فقد تذكر شيئا امتعض منه . تذكر كيف سقطت صورة الأسد والتاج البريطانى فوق رءوسهم فى غرفة (فريزر) بالسفينة منذ أسبوعين عند ما هموّا بشرب نخب التاج . ولكنه راح يطرد عن نفسه هذا الخاطر المنغص ، وقال فى نفسه :

— لا خير فى مهمة تبدأ بالتوجس .

المتطوعون

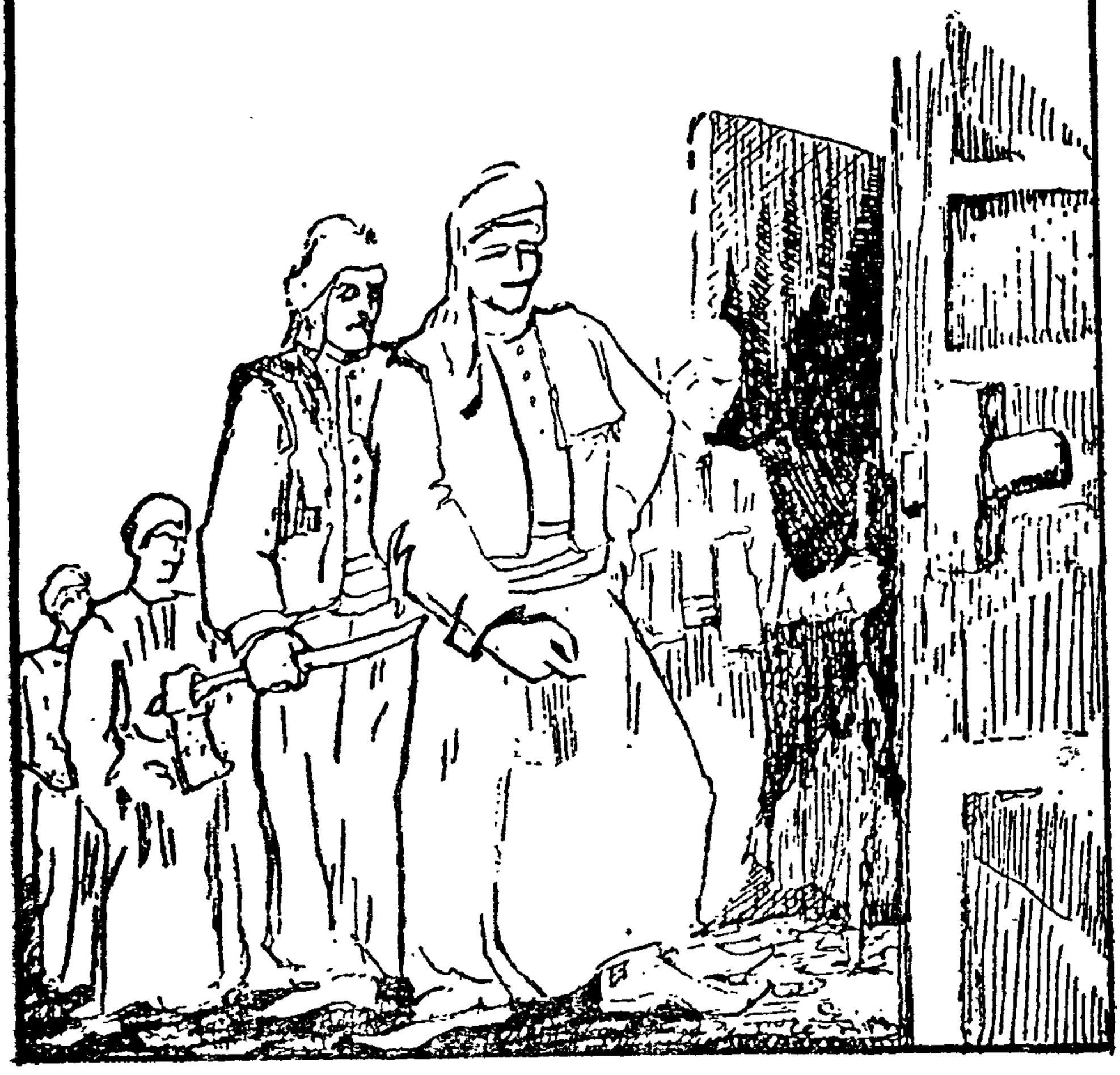

٦

أشرق الصباح على الربوة العالية فى أبى مندور فوجدها ساكنة كأنما لم تشهد بالأمس هذه الإغارات التى وجهها أعداء الحرية إلى المدافعين البواسل . وجلس (ابراهيم طاهر) ينصت إلى حديث مراد باشا فى خيمته المنزوية فى ثنية من ثنيات الأرض وقد نقل اليها الباشا مقر قيادته من القلعة .

قال مراد باشا :

— علينا أن نتوقع هجوم الأعداء الكبير على هذه البلدة اليوم أو غداً على أكثر تقدير . . فكل المناوشات التى بدرت منهم ليلة الأمس لم يكن القصد منها إلا جس نبضنا ، والوقوف على مدى استعدادنا .

وتذكر الباشا شيئا فجأة ، فاستطرد يحدث (ابراهيم) فى همس :

— من يكون هذا المقنع الذى تسلل كالشبح ليلة الأمس وأيقظنى من نومى وكتب هذه العبارات ؟ لولا أن خطه ما زال موجوداً على الخيمة بالخارج لقلت إنه كابوس أو عفريت من الجن أو كنت قد كذبت عينى .

وأجاب إبراهيم :

— إنى حقاً فى عجب من أمره ، وكدت لا أصدق روايته .. إلا أنى سمعتها من كثير من رجالنا . لقد أجمعوا على أنه شبح طويل القامة عريض المنكبين يرتدى رداء أسود ويضع على رأسه قناعاً من نفس لون الرداء . وعند ما يعدو يتحرك فى سرعة غريبة كأن أقدامه لا تلمس الأرض . لا أدرى هل هو روح فارس من آبائنا الذين قتلوا الصليبيين على هذه الأرض ! فأنا لا أكاد أصدق أن بشراً يقدم على هذه المخاطرات وهو يخفى أمر نفسه ولا يفصح عن وجهه . إن رجالنا يملؤهم الإيمان منذ أن شعروا به ويقولون إنه مهما كانت حقيقته فهو بشير فأل حسن من السماء .

وعندئذ قال الباشا وهو يبتسم :

— نعم ! من يدرى ؟ لعل الله أرسله الينا عوضاً عن المؤن والأسلحة التى لم ترسل بها (العاصمة) . . لا أدرى إلى متى سيظل (محمد على باشا) لا يعلم أن ميدان المعركة الحقيقى هنا فى شمال القطر وليس فى جنوبه فى الصعيد [1] ! ألا يدرى الرجل أننا لا نزيد عن مئات قليلة . وأن العدو أمامنا بالآلاف [2] .

---

(١) وقع هجوم الإنجليز فى أبى مندور فى ٢٩ مارس ١٨٠٧ وهجموا على البلدة فى ٣١ مارس فى حين أن « محمد على باشا » ظل يحارب فى الصعيد حتى ١٢ أبريل (محمد مسعود)

(٢) لم يزد مجموع حامية رشيد عن ٧٠٠ جندى مسلحين بأسلحة خفيفة ، فى حين أن حملة « فريزر كانت مكونة من ٧٠٠٠ مقاتل أرسل منها إلى رشيد ٢٠٠٠ مقاتل مزودين بمدفعين من عيار ستة أرطال ومدفعين هاوتزر بقيادة ويكوب (التاريخ العسكرى للحملة) .

وفجأة انقطع الحديث على الرجلين ، فقد اقتحم الخيمة عليهما أحد الضباط وهو يجرى لاهثاً وقدم إلى الباشا ورقة كبيرة مطوية وقال :

— سيدى ! ألقى الشبح المقنع الآن بهذه الورقة مطوية ومثبتة فى حجر صغير على أحد مواقعنا . وكان بالموقع ثلاثة من رجالنا وقد قرأوا الورقة وأرسلوها إلينا فى الحال .

وتناول الباشا الورقة وفتحها وأخذ يتلوها بصوت عال :

« بلغوا مراد باشا أن العدو يجهز ألفين من رجاله ومعهم مدافع ثقيلة للهجوم على البلدة . القوة تتحرك من أبى قير إليكم فى مساء اليوم . . والإمضاء الصديق المقنع » .

وانصرف الضابط وعاد (مراد باشا) يتحدث :

— هذا ما كنت أتوقعه . بارك الله فى المقنع المجهول ، إنه يصدق دائما .

وسوف تؤيد هذا الخبر كشافتنا فى الأمام .

وصمت الرجل برهة وعاد يتحدث فى صوت عال :

— إبراهيم . لم يبق أمامنا إلا أمل واحد . . المتطوعون من أهل البلدة .

وخرج (ابراهيم طاهر) من خيمة القائد ، وقد قفز إلى ذهنه اسم صديقه (ابراهيم جاد الله) فبعث إليه وأخبره أن الباشا أسند اليه مهمة قيادة المتطوعين وعليه أن يتوجه فوراً إلى بيت الحاكم فى المدينة لكى ييسر له هذا الأمر .

وعند ما قابل (ابراهيم جاد الله) الحاكم أوصاه بجمع المتطوعين وقيادتهم وأخذ يبين له كيف أن سلامة (رشيد) بأسرها مرهونة بتضحية رجاله .

وكان (ابراهيم جاد الله) يدرك كل كلمة ينطق بها طاهر بك الحاكم . وأخذ ينصت اليه آمنا مطمئنا . فقد كان ممثلنا ثقة برجال (رشيد) . لقد شهدت السنوات الأخيرة الماضية فداءهم وبلاءهم [1] .

فهم الذين أقضوا [2] مضجع (مينو) [3] منذ أعوام قريبة . . وهم الذين ثاروا فى وجه جنود (أبر كرمبى) يستعجلون جلاءهم عن البلاد .

---

(١) البلاء : التجربة والاختبار .

(٢) أقض مضجعه : جعل فراشه كريها خشناً فلا يستطيع النوم فيه .

(٣) كان (مينو) هو حاكم رشيد فى عهد الحملة الفرنسية . ولقد تزوج من إحدى أسرها خصيصا ليأمن غضب البلدة . ومع ذلك فكثيرا ماثاروا ضده حتى أنه بعث إلى نابليون يصفهم بالمكر والدهاء ويطلب منه أن يزيد من رجال الحامية الفرنسية . وقد كان خوف الرجل فى محله . فقد قتلوا عددا كبيرا من رجاله يوم أن أحرق بلدة (شباس) . (الرافعى: الجزء الثانى)

بل ومنهم من كان يرحل بعيداً عن رشيد ليشترك فى ثورة أو واقعة نائية .. مثلما اشترك (جابرالرشيدى) فى ثورة القاهرة ومثلما اشترك رجال غيره فى واقعة دمنهور .

وعند ما خرج من بيت الحاكم إلى الطريق كانت هناك عينان آثمتان تتابعان سيره . . . وقد اختفتا خلف النافذة ذات الخشب الرفيع المعقود .

كانتا عينى (درة) بنت (قطان باشا) الخائن .

وأخذ (ابراهيم جاد الله) يجوب أطراف المدينة ، ويتصل بأهلها جميعا ، ولم يجد أدنى مشقة فى إقناع شبابها بالتطوع ، بل كثيراً ماهجمت عليه الفتيات والسيدات المحجبات من خلف أبواب الغرف يستحلفنه أن يسجل أسماءهن بين المتطوعين .

وعند ما اقترب من بيت أبيه دخل ليستطلع أحوال أسرته ، وكان لم ير أهله منذ مدة طويلة . ولمّا قابل أمه فرحت بعودته وعانقته طويلا والدموع فى عينيها . وأخذت تنصت إلى حديثه فى سرور ولهفة . .

وكان لإبراهيم جاد الله شقيق آخر يصغره ، ويدعى محسنا ، وكان الشقيقان على طرفى نقيض . فبينما يفيض إبراهيم حماسة وجداً ، كان محسن لا يعرف إلا الاستهتار والمجون . . وكانت الأم تحب كليهما .

وإن كانت تؤثر[1] (إبراهيم) لتضحياته التى تجعله يفارق الدار كثيراً .

وكان محسن أمضى ليلة الأمس غائبا عن البيت فسألت الأم ابنها (إبراهيم) عنه وقالت :

— هل رأيت أخاك (محسن) ؟

فأجاب قائلا :

— لا . هل رأيته أنت ؟

أجابت :

— رأيته لحظة واحدة .

— وماذا قال ؟

— إنك تعرف (محسنا) . فإنه أبدى إعجابه بشجاعة المتطوعين فى شىء من الدعابة .

وقبل أن يبدى إبراهيم استياءه عادت الأم إلى الكلام فقالت :

— لاتلم «محسنا» فهو كما خلقه الله . إنه لا يبالى شيئا .

— إنه لا يُعنى إلا بملذاته وشهواته ، ولقد سمعت أنه كان بالأمس مع عدد من الماجنين يضحكون ولا يأبهون لتلك المحنة التى تجتازها البلد .

---

(١) يؤثر الشىء إيثاراً : أى يفضله على غيره .

وقام الشاب ليذهب إلى عمله ، ويلتقى بباقى الشباب المتحمسين الذين قرروا الذهاب إلى القتال ليمحوا العار عن الوطن .

ومدت الأم يدها نحو ابنها المفضل،فجاءها ثانية وجلس عند قدميها وقبّل يديها فقالت :

— أرجوك ياولدى ألا تقدم على عمل من أعمال الطيش ، ولا تتصرف تصرفا تندم عليه حين لا ينفع الندم .

— لا تخافى يا والدتى ، فقد جاءتنى وعود بالمساعدة . إننى حذر كالثعلب ، ولكنى لن أثنى ركبتى للقوة الغاشمة .إننى أقاتل عصابة السفاحين الذين انتهكوا حرمتنا وداسوا حريتنا . فإن الواجب على هو أن أخدم بلادى وأبوى .

. . ثم قبّل أمه وغادر المنزل مسرعا . . ولو استطاعت لأوقفته ، لأن الخوف بدأ يستولى عليها .

وعند ما انقفل الباب من خلفه أجهشت أمه فى البكاء . هل ستراه ثانية فى حياتها ؟. وأخذت تلعن المعتدين الغاصبين الذين جاءوا من أقصى أطراف الأرض ليثكلوا[1] النساء ويتموا الولدان ، ويدمروا الدور الآمنة . .

---

(١) الثكل : هو فقدان المرأة ولدها .

الله معينا

٧

ملأ التوجس قلب أم « ابراهيم جاد الله » منذ قدوم المعتدين . . إذ كان من المفروض أن يكون اليوم ذا شأن فى حياة ابنها الآخر (محسن) ولكن الآثمين قد أفسدوا بقدومهم كل شىء ..

وعندما بلغ تفكيرها إلى ابنها الآخر تصادف أن عاد محسن إلى البيت واجتاز ردهته إلى غرفتها .. وفوجئت أمه بقدومه وقالت له :

— كنت أفكر فيك حالا قبل حضورك .

ولم يجب (محسن) . بل وقف واجماً شارداً .. وتحسس مقعداً منخفضاً وجلس عليه .

وغطى وجهه بيديه ، وجلست أمه وقد لفت رقبتها بشالها من البرد . وأخذ محسن يفكر تفكيراً عميقاً ؛ حتى أنه نسى أنه جالس مع أمه . . راح يتصور الموقف ؛ فقد كان هذا اليوم محدداً لحفلة عرسه ، ولكن البلدة أخذت بقدوم العدو إليها ، فكان من جراء ذلك تأجيل العرس إلى مابعد الموقعة.. لقد كانت (وداد) وهى من علية القوم وابنة أحد أشراف البلدة ، ذات عينين سوداوين ناعستين وشعر مسترسل على جبينها ووجه مثل البدر وسط السحاب .. أخذت هذه الصورة الجميلة تتراءى لمحسن وتسيطر على عقله وهو جالس فى الشرفة مع والدته .. وراحت الحوادث

الماضية تـكر أمامه ، فقد كان بعكس أخيه ابراهيم ، خاملا لا مكانة له فى القرية .. كان جالسا ذات يوم فى مزرعة فى الطرف الشرقى للمدينة يغنى أغنية شعبية :

حـكوا لى عن حلوه ومرّه شغـلوا فؤادى بيـه
لا عينى لمحـــت خيـاله ولا يوم سمـــعت عليه

ثم استولى عليه النوم ، ولـكنه قام فزعا على صوت استغاثة ونباح كلب ، فوجد فتاة تجرى ويتبعها كلب ضخم الجسم ، فما كان منه إلا أن هجم على ذلك الـكلب وضربه بعصاه حتى جعله يفر من أمام هذه الفتاة الحسناء ، وعند ذلك شكرته الفتاة قائلة :

— إنى أدين لك بالشكر .. لقد أفزعنى الـكلب حتى كدت أموت خوفا . .

— هذا شـكر كبير على واجب ضئيل . .

وأعجبت « وداد » به .. وقبـل أن تهم بالانصراف وقفت تسأله وفى عينيها شىء غريب ..

— سمعتك تغنى . . فهل لى أن أسألك سؤالا ؟

فأطرق « محسن » برأسه واستطردت الفتاة :

— ما هذا الشيء الذى شغل فؤادك دون أن تلمحه عيناك ، ولم تسمع به أذنك ؟ ..

وقال محسن وقد رفع رأسه لينظر فى عينيها :

— إنه الحب ..

— آه كان يجب أن أفهم ذلك من نفسى ..

وضحكا طويلا ..

وعرّفته وداد أنه الآن فى مزرعة أحمد بك عاصم والدها .. وعند ذلك تآلفت روحاهما وصار يقابلها كثيراً فى تلك المزرعة بدون علم والدها.. وكان لتلك الفتاة ابن عم يدعى (حسن) ، مغرم بها ، وطالما عرض عليها قلبه فكانت ترفضه بإباء وشمم . وقد أقسم ذلك الشاب أنه سينتقم منها فى يوم من الأيام .. ورابه خروجها كل يوم فى وقت الغروب وتوجهها إلى الحقل منفردة بدون علم أحد من أهل المنزل ، وذات يوم اقتفى أثرها فوجدها تتلاقى مع (محسن) بجانب الغدير ، وعلى حين غرة خرج من مخبئه ، وفاجأهما معا ، نظر إلى محسن نظرة احتقار وقال له :

— أيها الوغد الدنيء ! ماذا تفعل فى تلك المزرعة ؟

فقال (وداد) :

— إنه فى هذه الأرض بدعوة منى .

لا عهد لى بأن الرجال يحضرون بدعوة النساء وماهذا إلا لص مجرم، ولكن ما بالك تدافعين عنه !

ولم يخف ما كان عليه من حنق شديد ، ولكن (محسن) نظر اليه بالضحكة الهازلة لا تفارق فمه كما لم تفارقه نظرة الاحتقار .

عند ذلك تركهما (حسن) وذهب يعدو نحو المنزل ، فقالت وداد لحسن :

— بالله عليك اذهب ، فإنه لا يلبث أن يرجع مع رجال المزرعة يسوك بضرر .

واستجاب (محسن) لنصيحتها ومضى إلى منزله ، وفى اليوم التالى ذهب هو ووالده إلى والد الفتاة وخطبها منه ، وحدد العرس بعد هذا اليوم ولكن الاحتفال به تعطل بمناسبة هجوم العدو لاحتلال الرشيد .

أفاق (محسن) من تأملاته على صوت والده يقول له :

— فيم تفكر ؟ لقد جُنّد كل شبان البلدة ليذودوا عن نسائهم وأطفالهم . فما بالك جالسا فى المنزل ولم تخرج لتدافع عن بلدتك مع المدافعين عنها ؟ هل ستبقى طول حياتك ....

فقاطعه زوجته قائلة :

— لقد خرج (إبراهيم) وجند فليبق (محسن) معى فى المنزل .. إنى لا أستطيع ذلك ! إذ ماذا أصنع بعد ولدىّ ، وهل يلذ لى العيش فى الحياة ؟ لقد تجرد قلبك من محبتهما فتريد أن توردهما موارد التهلكة .

— لا تظنى ذلك أيتها الزوجة العزيزة ؛ فإننى لست أقل محبة لهما منك بل أنا أكثر منك وطنية . . أتفضلين حياة ابنك وموتنا نحن فى ذل الأسر ورق العبودية ؟ أم موته وحياتنا فى نعيم الحرية ؟!

وصمت فجأة لأن السكون الذى كان مخيما على المدينة ، قطعته أصوات أغنية شعبية وطنية وهتافات عالية :

النيل دا حياتنا محروس برشيد
حندافع عنه ودفاعنا مجيد
تحميه أرواحنا من شر الغاشم
ولا يشرب منه غاصب ولا ظالم
النيل دا حياتنا النيل دا حياتنا

حدث كل هذا ومحسن لم يتحرك من مكانه فقد كان لا يأبه لأحد فى الوجود ، وعاش طول حياته خامل الذكر ، فما الذى يجعله الآن يقوم ويتحمس من كل هذه الأهوال .

لقد نظر إلى والده وهو يبتسم تلك الابتسامة الساخرة المستهترة التى اشتهر بها فى البلدة ، فما كان من والده إلا أن خرج من المنزل وهو يتمتم بكلمات تدل على الغضب والتذمر .

وعند ما خلت الأم بابنها راحت تسرى عنه ، وجعلت تحدثه وهى تمسح على رأسه :

— لا تغضب يا بنى كل ضيق سينفرج قريبا ، و (وداد) ستكون لك بإذن الله .

ولكن (محسنا) ظل صامتا .

وصمتت الأم كذلك . ثم شرد تفكيرها لابنها الآخر إبراهيم . . فراحت تسأل عنه (محسنا) وقالت له :

— (محسن) ! لقد جاءنا (ابراهيم) أخوك منذ ساعة وكان على عجلة من أمره ، هل قابلته فى طريقك ؟ يبدو لى أنه عين فى مهمة خطيرة .

وهنا انفجر الشاب الصامت . كان صمته كبتاً لثورة حبيسة، وخرجت الكلمات من بين شفتيه فى عصبية وغيظ :

— أليس هناك حديث إلا عن (ابراهيم جاد الله) ؟

— أليس هناك سؤال إلا عن (ابراهيم جاد الله) ؟ لقد عين إبراهيم اليوم قائداً للمتطوعين! فهل يظن أنه قادر بمتطوعيه العزل[1] من السلاح أن يصدوا عدواً مجهزاً بالمدافع الثقيلة ، مدافع البارود الضخمة التى دكت أبراج الاسكندرية دكا !

كان (محسن) يحس اليوم ضيقا ثقيلا فى نفسه ، ولقد أثر فى كيانه تأجيل موعد زفافه ، كما ضايقه حديث أهل البلدة الذى لا ينقطع عن أخيه ابراهيم . لقد كان (ابراهيم) محبوباً مقدراً لديهم ، ومما زاده غضبا على غضب ما علمه من أمر العدو الذى جاء يهدد (رشيد) بمدافعه الثقيلة ، وكان يعلم أن أهل (رشيد) وجندها عزل أو كالعزل من السلاح ، ومن أين يأتيهم السلاح والقاهرة تغمض عينيها عن (رشيد) !

وراحت الأفكار تتلاحق فى رأسه وتتضارب كمحموم يهذى . وعند ما أفاق من ثورته قام وغادر البيت لا يلوى على شىء

---

(١) الخالين من السلاح .

وعند ما وجدت الأم نفسها وحيدة انطلقت فى بكاء حار ، ولم تفق منه إلا على صوت زوجها الهرِم [١] ، وقد عاد وتسلل إلى غرفتها ، وقال لها :

— يا أم ابراهيم كفِّى عن البكاء . إنهضى وأشرفى على إنضاج الطعام .. ففى أيام الخطوب خير للانسان أن يعمل بيديه بدل أن يستسلم للعويل [٢] .

ونهضت الأم وراحت تجفف دموعها .. وكادت تغادر الغرفة ولكنها وقفت واستدارت تحدث زوجها .. كانت قد تذكرت شيئاً :

— جاد الله .. قل لى .. هل تكره ابنك (محسناً) ؟

وأجاب الرجل فى هدوء :

— لا يكره الآباء أبناءهم ، وانما يكرهون فيهم أفعالهم الخاطئة .

وعادت تسأل :

— وهل يكره محسن أخاه إبراهيم ؟

وأجاب الرجل بنفس الهدوء :

— لا يكره الأخ أخاه ، وإنما قد يغار منه ، والغيرة كالنار ، تضر أحياناً وتنفع أخرى !

---

(١) الهرِم : كبير السن . والهرَم : كبير السن (٢) العويل : رفع الصوت بالبكاء

فسألته فى دهشة :

— هل قلت إن الغيرة تنفع كذلك ؟

— نعم . فإن الغيرة أول الطموح . والمتبلدون فحسب هم الذين لا يحسون الغيرة . .

ووقفت أم إبراهيم تعيد الفكر فى كلمات زوجها الذى اعتادت منه أن يقول كلاماً مفهوماً حيناً وغامضاً أحياناً كثيرة .

وعاد زوجها يستحثها على الذهاب لإنضاج الطعام وقد انتصف النهار. ولكنها كانت قلقة تتمنى ألا تكف عن الأسئلة طول النهار . وقبل أن تخرج من الغرفة قالت :

— جاد الله ! لى سؤال أخير .. هل حقا جلب الأعداء معهم مدافع كبيرة جداً تهدم الأبراج والبيوت ؟

وهنا صاح الرجل فى وجهها فى عزم وإيمان :

— يا امرأة هدئى من روعك[1] . واذكرى أمراً واحداً أمام عينيك. فإن كان الإنجليز معهم مدافعهم . فاعلمى أن معنا ما هو أعلى وأكبر . هم معهم مدافعهم . أما نحن ، فالله معنا .

---

(١) الروع (بالفتح) الفزع . والروع (بالضم) القلب والعقل .

حبات الخرز

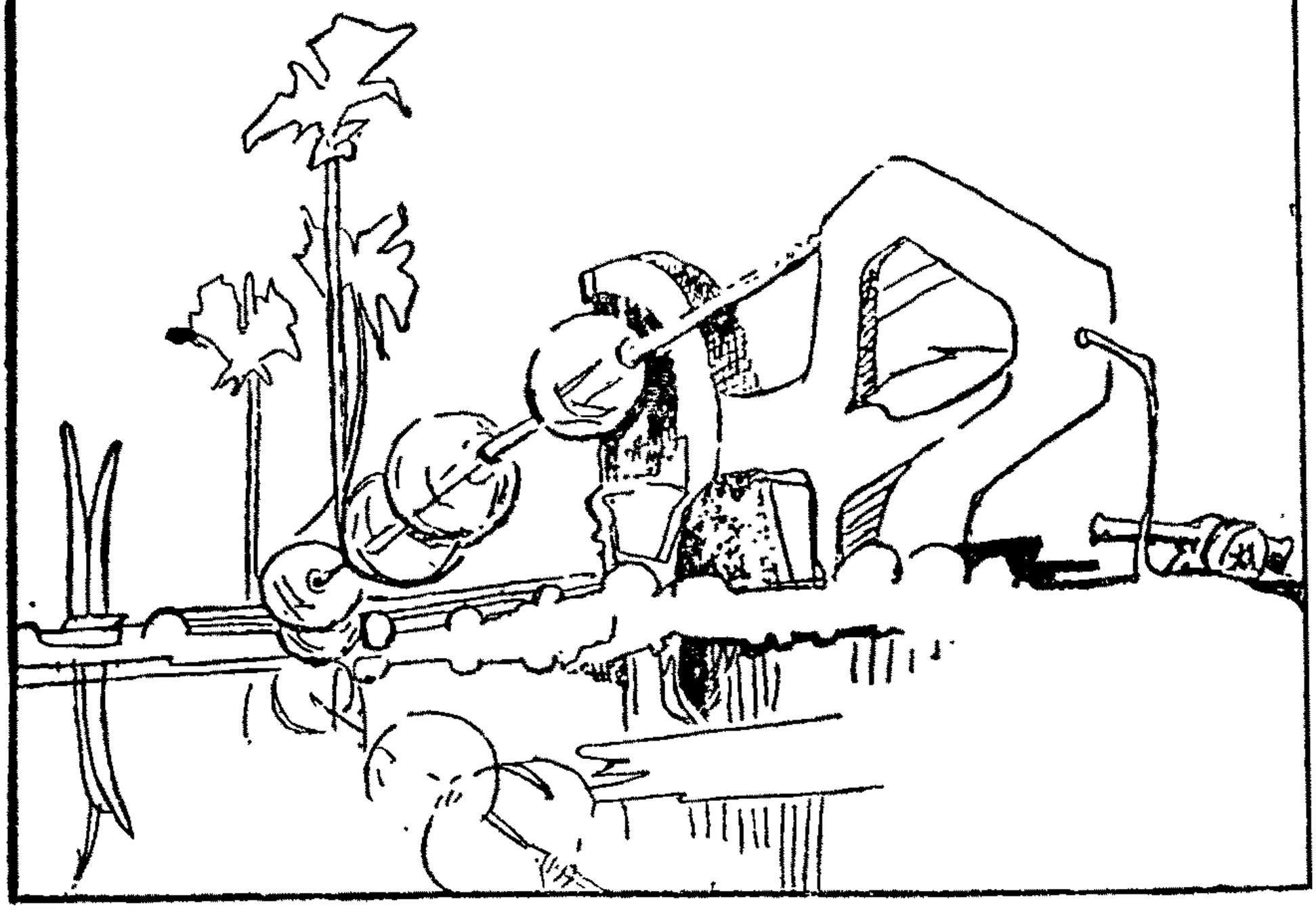

٨

استطاعت « درة » بدهائها الذى ورثته عن أبيها الماكر أن تحصل على كثير من الأسرار والمعلومات .. لقد مكثت حتى اليوم أسبوعاً فى البيت خبرت فيه كل أهله وعرفت كيف تستدرج كل واحد منهم فى الحديث . كان الأمر بسيطاً لديها لا يكلّفها إلا أن تفتح لكل واحد منهم الموضوع الحبيب إلى قلبه .

كانت تحدث « جميلة الرشيدى » عن أبيها الغائب ، وتحدث زوجة الحاكم عن ابنها «إبراهيم» فى طفولته .. أما « طارق» الصغير فكانت تشاركه لهوه وتصنع له مراكب الورق الصغيرة ..

وفى آخر كل نهار كانت تصلها طاقة كبيرة من الزهور الناضرة مع رسول من أبيها . وكانت تقول لهم لقد وعدنى أبى أن يبعث إلىّ كل يوم ببعض زهور الحديقة التى أمضيت حياتى كلها بين أغصانها حتى صارت جزءاً منى .. ولم يتطرق الشك إلى ذهن أحد من البيت عن رسول الزهور .. ولم يكن هذا الرسول سوى الوسيلة لنقل الأخبار والمعلومات من بيت الحاكم ..

وكانت « درة » لا تكف عن الجلوس بجوار النافذة ترقب الوافدين إلى الدار .. وعندما وقعت عيناها الماكرتان على « ابراهيم جاد الله »

وهو يغدو مهرولا استرابت[1] فى أمره وقد قدم إلى بيت الحاكم فى هذه الساعة المبكرة من النهار ..

وسألت جميلة الرشيدى التى كانت تجلس قبالتها :

— هل تعرفين هذا الرجل ؟

وأنبأتها «جميلة» عنه بكل شىء فى براءة .. قالت لها عنه إن رشيد كلها تدين للرجل وطنيته وتضحياته .. وحكت لها عن شجاعته أمام الفرنسيين قديما وأمام الألمانى حديثاً .. وعرجت فى حديثها إلى ذكر أبيها .. فقالت إن والدها كان يعرف أسرة جاد الله حق المعرفة .. ولقد زارها الشيخ « جاد الله » ومعه « إبراهيم » عقب عودة الأخير من دمنهور .. وقال لها الشيخ أن أسرته كلها فى خدمتها . وكان الرجل يتحدث فى صدق وعطف باديين . وتذكرت « جميلة » أنها لمحت فى عينى « إبراهيم جاد الله » فى ذلك اليوم شيئاً خفياً . وسألته عندئذ :

— هل سمعت شيئا عن أبى ؟

وتذكرت كيف ارتبك إبراهيم .. فاعترض أبوه الشيخ الحديث وقال يطمئنها :

— كل خير يا ابنتى .. أعاده الله بإذنه سالماً لك ..

---

(١) استرابت : شكت . والريب : الشك .

وانصرف الشيخ وابنه . . ومنذ ذلك الحين وأسرة « جاد الله » لا تنقطع عن السؤال عنها والتردد على بيت الحاكم من أجلها . .

وظلت « درة » تسمع إليها فى انتباه وشغف .. حتى انتهت من قصتها فراحت تستدرج جميلة فى الحديث قائلة :

— إنه رجل وطنى حقا .. ولعلهم يستفيدون منه بشىء فى هذه المرة أمام المعتدين ..

فأتمت جميلة حديثها قائلة فى همس :

— بلغنى أن النية معقودة عند الجميع على تعيينه قائداً للمتطوعين . ولا بد أنه قادم اليوم من أجل ذلك .

وكانت « درة » تنصت إلى حديثها وهى تلعب بأصابعها بحبات من الخرز الملون تخرجها وتعيدها إلى كيس صغير من الحرير .. كانت تتظاهر بأنها لا تعير التفاتا كبيراً إلى الحديث عن المتطوعين وجاد الله .. أما فى خبيئة نفسها فكانت كلها آذانا مصغية .. وكانت تستعيد الحديث والأسماء فى نفسها لتحفظها عن ظهر قلب . وأقبل طارق الصغير نحوها وهو يصيح فرحا :

— لقد قلت لأبى اليوم إنى أرغب فى التطوع .. وقال لى أبى عندما نبدأ فى كتابة أسماء القادمين سنكتب اسمك ..

ولمعت عينا « درة » بنت قطان .. ولكنها ظلت تعبث بالخرز ، وأمالت رأسها على النافذة لترقب الطريق من جديد خلسة من وراء الخشب المعقود ..

وأخذ المتطوعون يفدون على بيت الحاكم ..

وظلت جميلة تحكى عن أبيها ، وكانت تتهلل كلما أقبل متطوع جديد يدوّن اسمه فى بيت الحاكم .. وخطر لها أن تعدهم ..

وعند الغروب بلغ عدد المتطوعين الذين أحصتهم « جميلة » ثلاثين وسبعمائة متطوع ، وقالت « درة »:

— يبدو أنه لن يأتى بعد الآن متطوعون آخرون ..

ولكن جميلة لمحت ثلاثة رجال يفدون إلى الدار معاً.. فصاحت قائلة :ـ

— ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ! عند ذلك أخرجت « درة » ثلاث حبات من الخرز وأودعتها الكيس الصغير ثم أقفلت الكيس وأحكمت وثاقه . وألقته من يدها جانبا ..

ونظرت إليها جميلة وقالت :

— أنت تعبثين كل يومك بالخرز .

فأجابت « درة » تواً :

— إنى أتسلى ، فزوجى بعيد عن الدار منذ أيام .. وهذا الخرز

حبيب إلى نفسى . . وكنت فى قصرنا أقضى اليوم إما فى الحديقة أتعهد الزهور أو فى الدار أتسلى بالخرز .

وجاء ميعاد وصول طاقات الزهور .. ودخلت إحدى خادمات القصر إلى غرفة « درة » وتقدمت الطاقة وقالت :

— إن الرسول الذى يحملها يسأل سيدتى هل ستبعث بشىء إلى والدها ؟

فأجابت « درة » :

— نعم سأرسل لأبى بهذا الكيس . وانتظرى قليلا حتى أكتب له رسالة شكر رقيقة .

وقامت جميلة وخرجت من الغرفة ووقفت ترقب ردهة الدار . ووقعت عيناها على الرجل الذى أحضر الزهور .. وكان يجول بعينيه فى أرجاء المكان .. ولم يرق لها منظر الرجل .. وأحست بضيق فى قلبها . . ثم دخلت غرفتها . وعندما همّت بإقفال الباب لمحت الخادمة تمر أمامها وفى يدها كيس الخرز .. وعندئذ استوقفت الخادمة هامسة . وأدخلتها غرفتها . . كان قلبها يحدثها طيلة اليوم بشىء لا تدرى كنهه .. لقد بدأت لا ترتاح إلى أسئلة « درة » الكثيرة . ولكنها لا تدرى لماذا ! ..

. . وأمسكت بالكيس من الخادمة وفتحته .

ووجدت ورقة صغيرة مطوية فيه عليها بعض الحروف الأجنبية .

وخطر لها أن تحصى حبات الخرز .. كأن شيئاً قوياً يدفعها فى داخلها إلى أن تأتى هذا الأ

ووجدت فى داخل الكيس سبع حبات كبيرة حمراء . وعدداً آخر من الحبات الزرقاء الصغيرة . وأحصت عددها فوجدته ثلاثا وثلاثين حبة من الخرز الأزرق . لقد ذكرها هذا الرقم بشىء . إن عدد المتطوعين بلغ اليوم سبعمائة وثلاثة وثلاثين . يا إلهى ! هل هذا يعنى شيئا ؟ أم هو محض اتفاق ؟ .

وخطرت لها ذكرى غريبة . فعند ما كانت صغيرة فى بيت أبيها فى بولاق بالقاهرة كانت ترى أباها وأعوانه الثـــائرين يتراسلون بنوى التمر .

وراحت تسأل نفسها : هل « بنت قطان باشا » زوجة « ابراهيم » ابن حاكم رشيد جاسوسة خائنة ؟

واستجابت جميلة إلى هاتف فى أعماق نفسها يأمرها بأن تحتجز الكيس ورقة ولا ترسل بهما إلى قطان باشا .

ولم تفاتح «جميلة» «درة» بشيء وعزمت ألا تبوح بشكوكها إلى أحد من أهل الدار حتى تستوثق من الأمر بنفسها .

وفى صباح اليوم التالى جلست « جميلة » تتحدث مع « درة » فى غرفتها وقالت « درة » :

— ألم يتوافد متطوعون آخرون بالليل ؟

وهنا أجابت (جميلة) متصنعة الهدوء :

— بلى . سمعت من (طاهر بك) نفسه أنه جاءنا ليلة البارحة مائة وخمسة متطوعين .

— أوه . هذا عدد كبير . يا ترى كم سيصل عدد المتطوعين من أهل البلده ؟

وأجابت (جميلة) وهى ترقب (درة) :

— من يدرى .. إنهم كثيرون على أى حال .

وصمتت (درة) وراحت تلهو بالخرز من جديد . وأمسكت بيدها حبة كبيرة حمراء وخمساً من الحبات الصغيرة الزرقاء وأودعتها كيساً صغيراً .

ولم تستطع (جميلة) أن تخفى نظرة بدرت من عينيها لتستقر فى عينى بنت الخائن الكبير .

لقد وعت الآن كل شيء . كان حدسها[1] صائبا . ولم تكن (درة) بنت قطان باشا إلا جاسوسة للأعداء فى بيت الرجل الذى لديه كل الأسرار .

وعزمت (جميـــلة) أمرها على شيء . . والتفتت إلى (درة) وقالت لها :

— (درة) .. تحضرنى قصة غريبة عن أبى سأرويها لك ، فإن الحديث عن أبى أحب حديث الى نفسى .

وابتسمت (درة) وأخذت تنصت . وقالت جميلة :

— كان ذلك فى مارس ! نفس الشهر الذى نحن فيه الآن ! ولكن فى عام ١٨٠٠ ، أى منذ سبع سنوات تماماً . هل تذكرين هذا التاريخ ؟ لا أعتقد ، فإنك كنت صغيرة وكنت فى رشيد . أما أنا فأذكره جيداً مثل كل إنسان عاش فى القاهرة فى هذا التاريخ وشهد ثورة المصريين على الفرنسيين وقائدهم كليبر . كنا نقطن أنا وأبى ببولاق . وكان أبى يدير مصنعاً للباد الطرابيش فى الظاهر . أما فى داخل البيت فكنا نعد البارود . هل وعيت هذا ؟

— نعم . نعم . إنى أسمع جيداً .

---

(١) الحدس : الظن والتخمين .

وهنا احتد صوت جميلة وقويت ملامح نبراته ، وقالت :

— إذن دعى هذا الخرز جانباً فإنه لن ينفعك بعد اليوم بشىء . .

. . كانت (درة) تظن فى جميلة السذاجة . ونسيت أن المحن قد علمتها الكثير . وأخذت (جميلة) تكمل قصتها :

— كنا نرتب خطتنا لليوم الموعود ٢٠ مارس ، وكان علينا أن نبلغ من حين إلى آخر عن عدد قطع البارود التى نصنعها سراً . فكان يعطينى أبى صندوقا صغيراً به عدد من نوى التمر ، وعدد من الثمار أنقله الى أحد أعوانه ، وكانت هذه هى طريقة المراسلة . فالنواة تمثل واحدة من قطع البارود ، أما الثمرة فكانت ترمز إلى مائة قطعة . هل وعيت هذا يا درة ؟

وعندئذ سقطت حبات الخرز من أيدى (درة) وتجهم [1] وجهها وحدقت طويلا فى عينى (جميلة) وقالت لها فى خوف وتساؤل :

— جميلة ! ماذا تقصدين بهذه القصة ؟

ولحظت جميلة الاضطراب على (درة) وقالت لها وهى تحدجها بعينيها فى صلابة وقوة :

— أقصد أنك جاسوسة خائنة للوطن .

• • •

---

(١) تجهم وجهها : أى صار كالحا .

وفى الوقت الذى اكتشفت فيه جميلة سر إبنة الخائن (قطان) كان الكولونيل (ويكوب) [١] فى طريقه الى رشيد . وكانت الجياد تلهث [٢] وهى تجر مدافع الحصار الثقيلة فوق الرمال ، وأمامها كان يسير ألفان من جنود الأعداء ينتزعون أرجلهم من الأرض انتزاعا . كانت الطريق أمامهم طويلة مضنية ، ولكن كان يدفعهم الإثم ، ويخدعهم الوهم .

أما (ويكوب) فكان يحلم بالنصر الزائف عند الأرض التى يقع عندها مفتاح النيل الخالد . لقد وضع الجنرال « فريزر » فيه كل ثقته . فقد فشل « وانجتن » قبله فى جميع إغاراته على الحامية المصرية فى (أبى مندور) .

وقال له « فريزر » هذا الصباح :

— إن القوة التى معك تكفل سقوط المدينة وتسليمها بغير عناد أو اشتباك . إنى آمل أن تكون أول رجل يدخل أول مدينة مصرية عند نهاية النيل . فأنت الذى ستتحكم فى النهر من شماله .

وظل (ويكوب) يجدُّ فى سيره ، وعيناه شاخصتان نحو النيل المقدس .

---

(١) قاد (ويكوب) الحملة على رشيد فى ٣٠ مارس ١٨٠٧ (تاريخ الحملات).

(٢) تلهث : تشعر بالاعياء والعطش .

وعند ما بلغ (أبا مندور) اجتمع (بولنجتن) فوجده كئيبا مغتما وأخذ الأخير يقص عليه أمر الحامية المصرية الصغيرة التى امتلأت إصراراً وعناداً ، وعند ما قص عليه أمر الشبح المقنع ضحك (ويكوب) طويلا واعتبرها دعابة طريفة ، وقال فى استخفاف :

— اليوم يجب أن ننتهى من أمر هذه البلدة الصغيرة .

وعندئذ شرعوا فى وضع المدافع الثقيلة فوق الربوة العالية وجعلوها جاهزة لضرب قلعة (أبى مندور) وهدم أسوار المدينة ، وتحركت قواتهم وأحاطت بالأسوار الغربية والجنوبية للبلدة .

وعند ما انتهى المعتدون من اتخاذ أوضاع المعركة ، قال (ويكوب) (لولنجتن) :

— إعط أوامرك ليستعد الرجال ، ولا تعط أى أوامر بالضرب حتى تصلنا الإشارة المتفق عليها من (العميل ٥٦٦) .

البلد الأمين

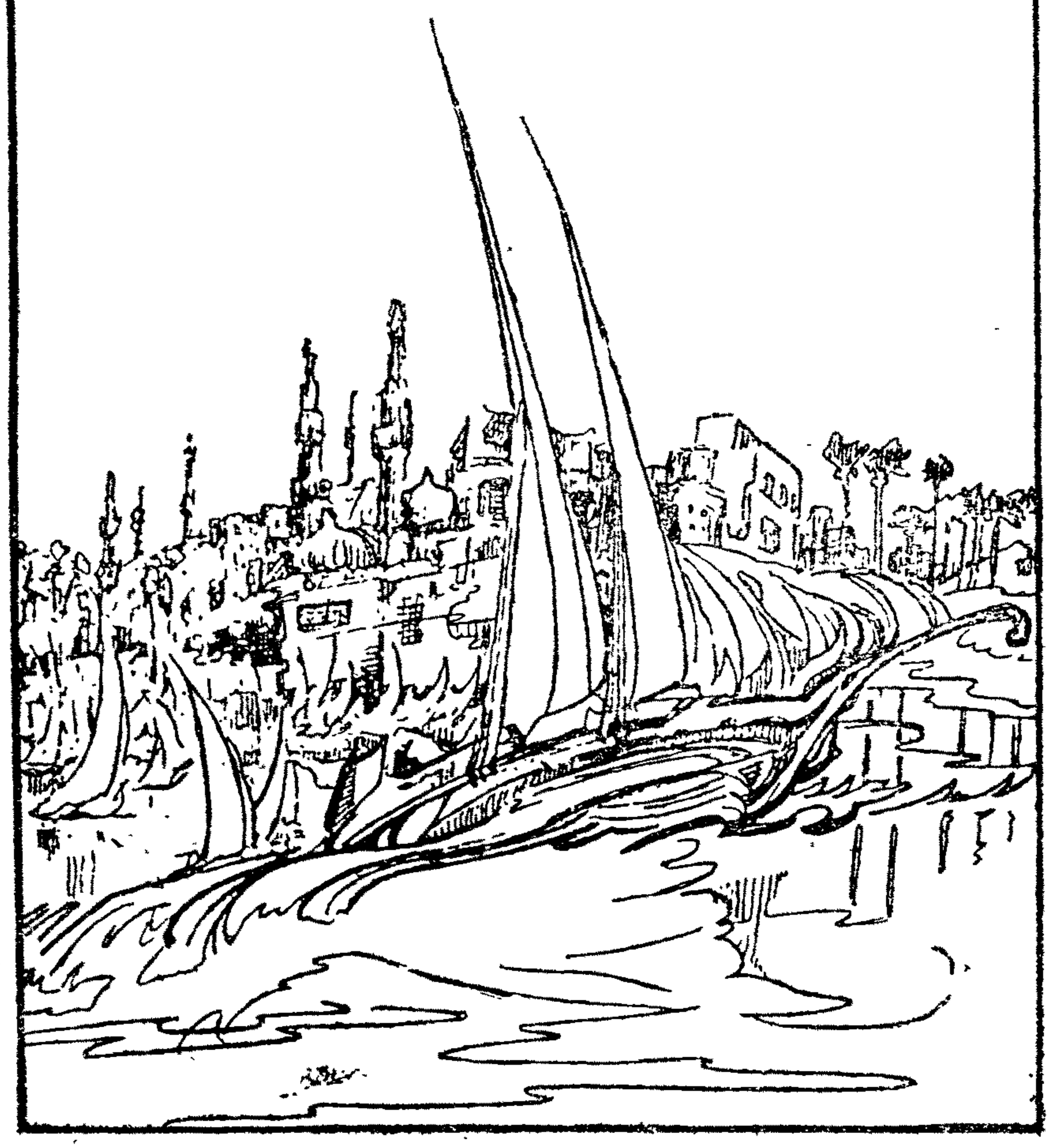

٩

حاولت « درة » أن تراوغ وتنكر الحقيقة فى بادىء الأمر .. ولكنها إزاء إصرار جميلة الرشيدى وبأسها لم تستطع الفتاة الغرة أن تقاوم طويلا ، فاعترفت بكل شىء وهى تبكى .. قالت إن الإنجليز استطاعوا أن يخدعوا أباها وأن يغروه بالمساعدة فى إعادة الاستقلال لوطنه « أرمينيا » إذا سهّل لهم أمر احتلال البلدة . وأجابتها جميلة أن ما فعلته هو الخيانة العظمى بعينها للوطن فى هذه المحنة العصيبة .. وأن أقل جزاء لهذه الخيانة هو قطع الرقاب ..

وكادت « جميلة » ترق للفتاة البائسة الآثمة التى كانت أداة طيعة فى يد أب مخاتل[1] مخدوع .. ومالت « درة » تستعطفها قائلة :

— أستحلفك يا جميلة بأبيك الذى أدعو الله أن يعيده إليك ، أن تتركى لى أبى . أما إذا قتلتموه فاقتلونى معه .. ولا تدعونى أعيش وحيدة من بعده .. وصمتت جميلة برهة وقالت للآثمة :

— اسمعى يا ابنة قطان .. إن الآباء هم أسمى من فى الحياة .. ولكن هناك ما هو أسمى حتى من الأبوة .. إنه الوطن .. فهو أغلى

---

(١) ختله : خدعه .

منا جميعاً .. وفى أثناء الحديث خطرت فكرة على ذهن جميلة فالتفتت إلى « درة » وقالت :

— إن الدافع الذى دفع أباك لخيانة وطننا حبه هو أيضاً لوطنه . وهذا يجعلنى أعيد التفكير فى جرمه ، وإنى على استعداد لأن أكتم سرّ كما فى نفسى ولكن على شرط واحد ..

— قولى وأنا رهن أمرك .

— أطلب منك أن تعاونينى فى خديعة الإنجليز .. فهم يثقون فيما ينقله أبوك إليهم . فإذا أمكننا أن نعطيهم بيانات مضللة عن طريق أبيك فقد ينفعنا ذلك كثيراً .

وأجابت « درة » نوأ فى حماس وإخلاص وهى مستمرة فى البكاء :

— إنى على أتم استعداد لتقبل هذا الشرط فوراً ..

— والآن سأختار من يدبر الأمر بنفسه بعد أن أحصل منه أولا على وعد بعدم إيذائك وإيذاء أبيك .

وقامت « درة » وانهالت لثماً على جبين الفتاة ويديها .

وأخذت جميلة تفكر فى شخص تستطيع أن تدبر معه هذا الأمر .

واتجه تفكيرها إلى أن تخفى السر عن إبراهيم طاهر زوج « درة » بل تخفيه عن كل أفراد بيت الحاكم .. وكان لها ثمة قصد من وراء

ذلك .. وتصادف أن عاد « إبراهيم جاد الله » قائد المتطوعين إلى دار الحاكم بعد قليل .. فاستصوبت فى نفسها أن تختاره هو لكى ترتب معه أمرها .. فما زالت تذكر ما أبدته أسرة جاد الله من رغبة فى مساعدتها.. وطلبت مقابلته بحجة أن تسأله شيئاً عن أخبار أبيها الغائب .

ولما انفردت به فى إحدى غرف الدار الكبيرة قالت له :

— انى أقصدك فى أمر خاص يا إبراهيم . . فهل أطمع فى معونتك؟

وبدا الاضطراب على وجه إبراهيم جاد الله فى بادىء الأمر .. فقد حسب أن جميلة ستكلمه عن أبيها .. ولكن عندما فهم منها أن الأمر بعيد عن ذلك حمد الله فى نفسه ووعد أن يضع خدماته رهن أمرها كوعده الذى أبداه ذات يوم .. وراحت تحكى « جميلة » له قصة « درة » وحبات الخرز ورسول الزهور وكل خيانات « قطان » وابنته التى اعترفت بها « درة » ثم أطلعته على كيس الخرز والورقة المطوية ذات الكلمات الأجنبية .

وثار « ابراهيم جاد الله » فى بادى الأمر على الباشا الخائن وابنته وقال لها :

— إنهما لا يستحقان إلا الإعدام .

وعندئذ قالت له جميلة :

— لك حق فى أن تغضب ، فمثل خيانتهما لا تستحق حقاً إلا قطع الرقاب . ولكن ماذا لو أمكننا أن ننتفع بهما وهما على قيد الحياة . ففى وسعنا أن نجعلهما يضللان الأعداء وبذلك نرد فى صدورهم سلاحهم الذى كانوا سيطعنوننا به ..

كان كلام « جميلة » منطقياً معقولا . . وكانت « جميلة » ذات مركز كبير فى قلبه إجلالا لأبيها الغائب . وقبل الرجل . . ووعد أن يفكر فى الأمر ، على أن تراقب جميلة « درة » جيداً إلى أن يعود اليها . . وعندما همّ بالانصراف أعطته جميلة الورقة المطوية وقالت له :

— ابراهيم ، ثمة أمر آخر .

— نعم .

— هل تعدنى بأن يظل هذا الأمر سراً بيننا ؟

— أعدك .

وخرج إبراهيم جاد الله من عندها وهو يقول فى نفسه :

— انها زكية جريئة حقاً .. بنت لأبيها ! ..

ثم أراد « ابراهيم » أن يستوثق من أمر الورقة المطوية .. فاتجه بذهنه إلى أجنبي عجوز يدعى « العجوز ينى » . وكان يدير حانة على شاطىء النيل يرتادها الأجانب الذين يمرون برشيد .

وذهب « إبراهيم » إلى حانة « النغر » (وكان هذا اسمها) .. فلما لمحه العجوز استولت الدهشة عليه .. كان « محسن جاد الله » هو الذى اعتاد أن يتردد على هذه الحانة بين الحين والآخر .. أما أن يأتى إبراهيم أخوه إلى هذا المكان ، فذلك أمر يثير الدهشة . ولكن سرعان ما ذهبت عن الرجل دهشته ، عندما أعطاه ابراهيم تلك الورقة ليترجم له كلماتها .. وأخذ العجوز يتلو ما بها بصوت عال :

« أرسل لك بحبات الخرز هذه رمزاً لحبى ووفائى .. ولو أنك أعددتها لوجدت قبلاتى إليك بعددها .. فالحبة الحمراء ترمز إلى مائة .. أما الزرقاء فترمز إلى واحدة فحسب .. إن شوقى يزداد يوما عن يوم .. انتظر غداً المزيد » .

وفهم إبراهيم المعانى الحقيقية التى تقصدها الكلمات .. وأخذ الورقة من الرجل العجوز وشكره . ورجاه أن يبقى أمرها سراً لديه ..

وعندما انصرف إبراهيم دخل العجوز إلى زوجته وهمس فى أذنها وهو يغمز بعينه :

— خبر غريب ! لقد سرت عدوى الحب إلى إبراهيم شقيق محسن جاد الله ..

ففغرت فاها .. وقالت والدهشة تملأ وجهها :

— يا إلهى .. « إبراهيم جاد الله » .. لا أصدق !!

وانطلق « ابراهيم جاد الله » يعدو إلى بيت الحاكم ووجده يجلس فى مجلس خاص يضم مراد باشا قائد الحامية ، و « ابراهيم طاهر » ابنه ، فدعوه ليشترك معهم فى الحديث .. وقال مراد باشا :

— لقد استوثقت الكشافة فى الأمام أن جنود العدو يربو عددهم على ألفين ومعهم أربعة مدافع ثقيلة . . كم بلغ عدد متطوعيك يا « جاد الله » ؟ . .

— لقد بلغوا ألفاً وسبعة ..

— حسناً . إن العدو لا يدرى شيئا عن هذا العدد . ولكن هناك أمراً واحداً ، لن نستطيع أن نضع هؤلاء المتطوعين لا فى الخنادق ولا فى القلاع ! أليس كذلك يا « ابراهيم طاهر » ؟

فأجاب « ابراهيم بن طاهر بك » الحاكم و « كاتم أسرار » القائد :

— بلى ! هو كذلك . فلو أقاموا فى القلاع القديمة لدمرتها المدفعية عليهم . وإذا احتلوا الخنادق فليس لديهم من السلاح مايردون به اقتحام العدو .

وقال « مراد باشا » :

— نعم ! ونحن نتوقع هجوم الانجليز على مواقعنا فى الأربع والعشرين ساعة التالية .

فسأل الحاكم :

— هذا صحيح . بماذا تشيرون إذن ؟

وصمت مراد باشا ثم قال:

— الحق أنه شىء محير ، وإنى أفكر كيف نؤخر هجوم العدو لبضعة أيام ، حتى نستطيع أن ندرب هؤلاء الرجال ونزودهم بالسلاح والمؤن التى قد تأتينا من القاهرة ..

وتدخل الحاكم قائلا :

— لا تنتظر مدداً من القاهرة . فما زال « محمد على باشا » فى الصعيد .. والظاهر أن اليأس بدأ يدرك الباشا الكبير . . وإلا

لفكر أن يرسل إلينا ماندافع به عن أنفسنا منذ أسبوعين ، والأعداء بالاسكندرية ، و « أبى قير » !

وخيم الصمت على الجميع ، واستغرق كل منهم فى تفكير عميق . .

وكان إبراهيم جاد الله صامتا طول الوقت لم يتحدث بشىء . . وعندئذ قطع الصمت بقوله :

— لدى فكرة !

فاتجهت إليه جميع الأبصار . .

واستمر فى حديثه قائلا :

— إننا لا نستطيع أن نؤجل هجوم الأعداء ، ولكننا نستطيع أن نبعث إليهم بمن يضللهم ويخدعهم .

فسأل الحاكم :

— ماذا تعنى بقولك نستطيع أن نبعث إليهم ؟ من هو الذى نبعث به إليهم وكيف ؟

فأجاب جاد الله :

— أستميحكم المعذرة إن كتمت من الأمور بعضها فإنى مرتبط بوعد . ولكنى أؤكد لكم أن عندى من يستطيع تضليل الأعداء وخداعهم .

واحترم الرجال وعد زميلهم . وعاد الصمت يخيم عليهم من جديد ..

وعندئذ انبرى الحاكم يتحدث فى حماسة :

— هل تقول حقاً إن لديك من يستطيع أن يضللهم ؟

— نعم ..

— إذن ابعث للانجليز من يقول لهم إن الحامية ستترك البلدة ، والأهالى سيرحلون عن المدينة ، والحاكم لن يبقى بها ، لأن جيشكم كبير ومدفعيتكم ثقيلة ، ونحن نخشى تدمير المدينة . . وستجدون البلدة خاوية على عروشها[1] فى خلال ساعات قلائل . اذهب إلى صاحبك الذى على اتصال بهم لينبئهم بذلك ..

وصاح القوم وتهامسوا . ونظروا إلى الحاكم طويلا . كان الرجل يتحدث فى صدق وجد . .

وسأل الجميع فى وقت واحد :

— هل سنفعل ذلك حقا يا طاهر بك ؟

فأجاب الرجل :

— ليذهب أولا «إبراهيم جادالله» لصاحبه ليخطر الأعداء بذلك . وأما الذى سنفعله حقا فهو آت بإذن الله . وكل آت قريب .

---

(١) رمزاً إلى البيوت . فعرش البيت هو سقفه .

وانصرف إبراهيم جاد الله . ولم يشأ أن يخبر الحاكم أن صاحبه الذى على اتصال بالعدو هو صهره ، والد زوجة ابنه . .

وفى عصر يوم ٣٠ مارس تلقى « ويكوب » من العميل ٥٦٦ إشارة تفيد بأن حامية المدينة ستغير الليلة . ولن يبقى بها رجل واحد للمقاومة . . حتى الحاكم سيترك المدينة ويعبر النيل إلى ضفته الشرقية ويرحل بعيداً . .

وفى الغروب لمحت كشافة العدو سفن المصريين تنقل الرجال والنساء والأطفال إلى الشاطىء الشرقى . وظلت السفن رابضة عند الشاطىء البعيد ولم تعد . .

وعندما تأكد «ويكوب» تماماً من خلو البلدة أحس الفرح والزهو.. إن مفتاح النيل سيكون بعد لحظات قلائل فى قبضة كفه ..

وأعطى الرجل أمره بالضرب على قلعة أبى مندور الخالية .. إيذاناً باحتلال البلدة، وانطلقت القذيفة لأولى مدوية مرعدة .. واهتزت جدران القلعة وخرت متهاوية على الأرض بعد أن ظلت تصد المعتدين قرنين ونصف قرن من الزمان[1] .

.. كان « إبراهيم طاهر » على حق عندما قال إن هذه القلاع لن تصمد لمدفعية الأعداء !

---

(١) أقيمت هذه القلاع فى منتصف القرن الخامس عشر . ولم يبق منها الآن بورشيد سوى أطلال حصن قايتباى فى شمال البلدة .

وتهدم السور الكبير الذى يحيط بالبلدة من الجنوب .. وعاد الصمت من جديد يطبق على البلد الأمين .

ومن خلال الفرجه[١] التى أحدثتها المدفعية فى السور لاحت البلدة خاوية مهجورة أمام « ويكوب » .

وبذلك انفتح السبيل أمام الأعداء إلى «رشيد» .. وأمر «ولجتين» الجنود بالتقدم ، فشرعوا ينحدرون كالسيل من الربوة العالية تجاه المدينة .. ولم يجدوا أثراً للحامية المصرية فى طريقهم .. كانت قد اختفت كما يختفى الشبح فى الظلام .

وظن « ويكوب » أنه ظفر بالنصر الذى يحلم به « فريزر » .. وغرته الأمانى .. واعتقد أن مفتاح النيل بلغ أطراف أكفه .. ومن فوق الربوة العالية بصرت عيناه صفحة النهر الخالد .

وكان النهر هادئاً وعميقاً .. وكانت البلدة كالنهر فى هدوء أعطافها[٢] وعمق أسرارها .

واغتر قائد الأعداء بالهدوء .. ولم يدرك ما خبأته البلدة من أسرار فى أعماقها المكينة .

---

(١) الفرجة : الثغرة .
(٢) الأعطاف جمع عطف ـ أى الجانب .

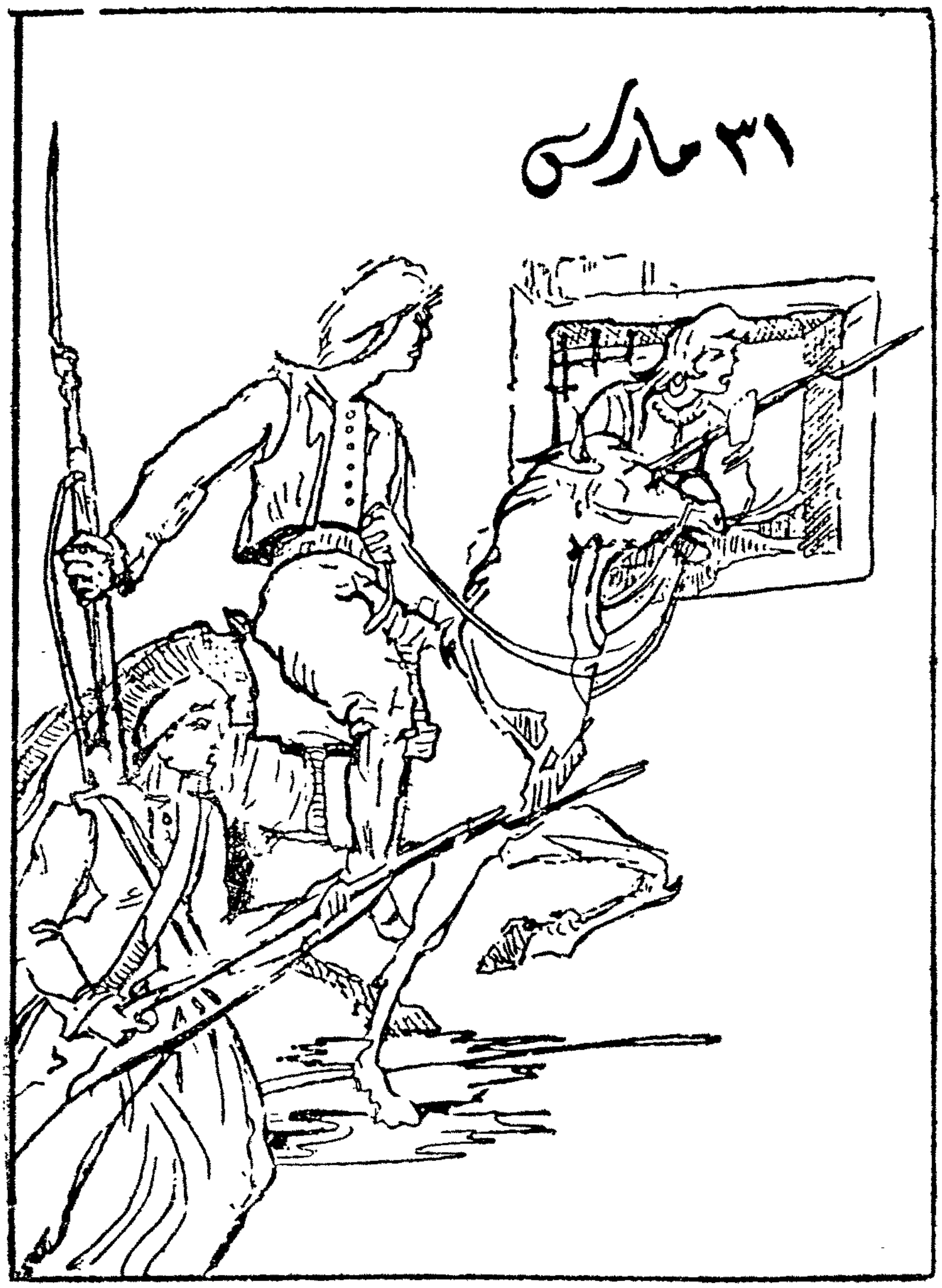
٣١ مارس

١٠

دلف جنود الأعداء إلى المدينة خلال الفرجة التى أحدثتها مدفعيتهم الغاشمة فى السور الكبير ، وراحوا ينطلقون منها إلى طرقات المدينة ، يبحثون كدأبهم عن سلب ينهبونه .. فاقتحموا بعض الدور وانتهكوا حرماتها ، وعبثوا بالمخازن والمحال .

ولما وجدوا البلدة كالخاوية على عروشها تحرروا من سلاحهم ليلتمسوا الراحة بالجلوس والنوم فى أعطافها ، وكانوا قد أعياهم الجهد الشديد ، وأمضّهم [1] تعب السير على الرمال الناعمة .

أما قادتهم - وعلى رأسهم (ويكوب) - فلم يفتهم أن يدعوا أنفسهم إلى وليمة فاخرة فى دار القنصلية الإنجليزية برشيد ، ولعبت الخمر والتعب برءوسهم فاستسلموا للنوم والراحة . ولم يكن فى حسبانهم أنهم ينامون فوق بركان ثائر ، تضطرم نيرانه من تحتهم فى أعماق الدور التى تطل عليهم من أكناف [2] المدينة .

وفى فجر ٣١ مارس ١٨٠٧ [3]

---

(١) أمضهم : آلمهم وأوجعهم . (٢) جمع كنف أى الجانب .
(٣) أقام أهالى رشيد فى عام ١٩٥٦ نصبا تذكارياً لشهداء هذا اليوم الخالد .

ذلك اليوم العابس أوله ، الباسم آخره ، لقى الإنجليز أكبر خدعة يمكن أن يمنى بها جيش محارب .

. . فهناك فى رشيد وتحت سفح (ربوة أبى مندور) العالية . .

وفى أحضان النهر الهادىء العميق . .

وفى أقبية الدور العميقة ، كان يرتقب قدوم الانجليز :

ألف متطوع . .

وستمائة جندى . .

وأكثر من الف سيدة وفتاة وشيخ هرم .

وكانوا يكتمون أنفاسهم إلى حين . لينقضوا على العدو الآثم المتسلل الذى جاء زاحفاً من أقصى اطراف الأرض ليحتل دورهم الآمنة . . مدفعه الجشع والوهم .

لقد عزم حاكم المدينة أن يضللهم قبل أن يضللوه ، وأن يوقعهم فيما نفروه بأيديهم . كانت الفرجة التى نقبها الأعداء فى السور ، هى المنفذ الى حتفهم ! فالسفن والقوارب التى نقلت الى الشاطىء الشرقى البعيد لم تكن تحمل إلا الشيوخ والأطفال والنساء الضعاف . وظن العدو أن العامة والأهالى قد ارتحلوا عن البلدة وأسلموها لهم . . وقوى ظنه رسالة سلطان) المضللة .. واستمر الحاكم يصدر أوامره الحازمة والأهلون يطيعون

ويقدرون . وأمر ألا تعود المراكب إلى شاطىء البلدة حتى يوئس رجاله من الطمع فى النجاة (١) .

ثم وضع رجال الحامية فى منازل متطرفة من المدينة ليختبئوا بأسلحتهم فى أقبية الغلال .. ومخازن المياه الرطبة .

أما المتطوعون فالتزم بأمرهم إبراهيم جاد الله . ولم يثنهم عن أمرهم أنهم عزل من السلاح ومن الذخيرة ..

وقبعوا فى الأقبية .. وكانت أسلحتهم أيديهم .

وكتموا أنفاسهم وكان الصبر ذخيرتهم ..

أما النساء فأبين إلا أن يشاركن أزواجهن وأبناءهن شرف النزال ..

وبقى معظمهن فى المدينة داخل الدور ..

حتى أم « ابراهيم جاد الله » بقيت إلى جوار زوجها الهرم ، وأمسكت بعصا الحديد التى كانت تقلب بها نار الطعام ..

ولم يدعن وسيلة من وسائل الدفاع إلا وأمسكن بها .. فانتزعن قطع الحديد والخشب من أثاث الدور .. وقمن بعددن الزيت المغلى ..

---

(١) من وقائع التاريخ (الرافعى — الجزء الثالث) .

ويمسكن بالأوانى وقطع النحاس الثقيلة . . وكتمن أنفاسهن ، مثلما فعل الرجال . .

ومضت ساعات الليل طويلة متثاقلة . . وصمتت المدينة إلا من دقات قلوب أهلها القابعين فى الأقبية . . متحفزين ليثبوا على العدو عندما يبلغ آذانهم صوت إشارة الهجوم .

ولما أوشك الليل أن يرحل عن البلدة الكاظمة غيظها ، تسلل « إبراهيم جاد الله » من أحد الأقبية الرطبة وبلغ ردهة « مسجد زغلول » . ومد بصره الى المئذنة العالية وكان عليه أن يصعدها حتى طرفها . . ليعطى إشارة الهجوم ..

وهنا حدث ما لم يتوقعه إبراهيم ، بل ما لم تتوقعه البلدة كلها . . فقد اتفق أن كان هناك ثلة من جنود الأعداء يربضون بالمسجد وكانوا نياماً عدا واحد منهم ظل مؤرقا فى ردهة المسجد . . فلما لمح إبراهيم جاد الله وهو يخطو وسلاحه على كتفه ، أدرك أن أمامه رجلا مسلحاً من المصريين ، فاختبأ وراء أحد الأعمدة وأطلق النار عليه غيلة وأرداه قتيلا . . وفى الوقت الذى سقط فيه « ابراهيم جاد الله » شهيداً مضرجاً فى دمه ، خرج شبح رجل مقنع متشح بالسواد من إحدى زوايا المسجد المظلمة ، وكانت عيناه قد رأت كل شىء .. فهجم على ظهر الجندى

المعتدى وطوق عنقه بيده . وطعنه بخنجره فى ظهره فقتله ، ثم أجهز[1] على زملائه الذين كانوا غارقين فى سباتهم ..

واتجه الرجل المقنع إلى « ابراهيم جاد الله » ، ولحقه وهو يجود بأنفاسه الأخيرة ، ونظر المقنع إلى وجه ابراهيم وبدا عليه أنه عرف صاحبه .. فاحتضنه بين يديه .. ولثم جبينه ..

وانحدرت دموعه من خلف القناع ..

وفتح « ابراهيم جاد الله » عينيه ونظر الى الرجل وأخذت تخرج الكلمات منه فى حشرجة :

— المئذنة .. الفجر .. الأذان ..

وكان القناع بدأ يسقط عن وجه الرجل فلما رأى إبراهيم عينى المقنع صرخ قائلا :

— لقد عرفتك . أنت . أنت ....

ولم يتم كلماته ! ومات بطل رشيد شهيداً . قبل أن يشهد ذروة نصره بدقائق ، وأعاد الرجل المقنع قناعه على وجهه من جديد ، وبدأ يفكر فى الكلمات التى سمعها من إبراهيم قبل وفاته .

---

(١) أجهز عليهم أى أسرع فى قتلهم .

المئذنة ، الفجر ، الأذان .

وفهم الشبح المقنع شيئاً ، وصعد المئذنة .

وانطلق صوته أميناً راسخاً[1] ليس غريباً عن آذان أهل البلدة يصيح في حماسة وإيمان :

الله أكبر . الله أكبر .

وكانت «الله أكبر» هي إشارة الهجوم على العدو.. الإشارة التي ظل يرتقبها طول الليل ، المتربصون ، والكاظمون الغيظ .

الله أكبر على كل غاصب متكبر .

والله أكبر فوق المعتدى .

وانشق جوف الأرض عن أبطال رشيد المتحفزين ، ولم تمض لحظات حتى دوت البنادق . فانفض[2] صمت الليل الرهيب ، وانقلب إلى صخب وغضب .

وانبعثت النيران إلى صدور جنود الأعداء النائمين ، والقادة السكارى .

---

(١) راسخا : ثابتا .
(٢) انفض الصمت : أي انكسر .

أول وعد

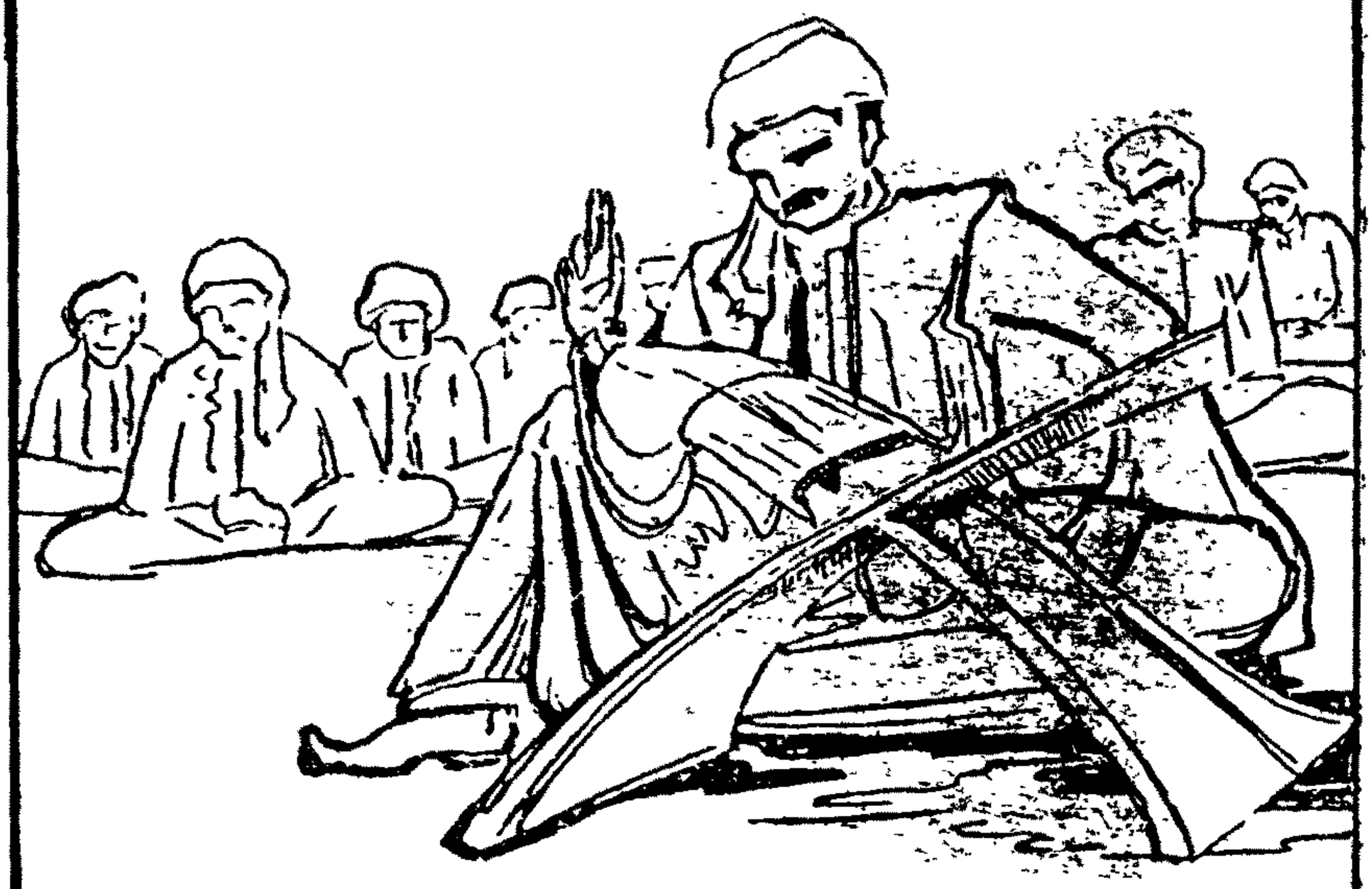

١١

عندما أرسلت الشمس أشعتها على البلد الأمين ، كان المتطوعون يسوقون طابور الأسرى إلى دار المحافظة .. وسار أفراد العدو يطأطئون[١] رؤوسهم عاراً وخزياً .

أما قتلى العدو فامتدت أيدى جماعة من جنود الأرناؤوط بالحامية فأجهزت عليهم وفصلت رؤوسهم عن أجسادهم .

وتضايق الحاكم كثيراً لما بلغه هذا الأمر ، فأرسل يطلب أقدم ضابط من الأرناؤوط ليسأله فى هذا الشأن ، فلما وقف الضابط أمام الحاكم أجاب على كلماته الثائرة قائلا :

— هل نسى سيدى ما مثّله المغيرون من الفرنسيين والإنجليز من قبل برجالنا ؟ هل غاب عنكم ما فعل ميمو بسليمان الحلبى[٢] ، وأسرة جابر الرشيدى ؟. هل غاب عنكم ما فعله هؤلاء الإنجليز بالاسكندرية .. وكيف أحرقوا دورها الآمنة ؟

---

(١) يحنون .

(٢) حكمت محكمة الفرنسيين على سليمان الحلبى باحراق يده ثم بوضعه على الخازوق وبقاء جسمه معلقا حتى تنهشه الطيور الجارحة ، أما باقى أعوانه فقطعت رقابهم . (إدوار جوان)

— لا ؛ لم يغب عن ذهنى شىءٌ من هذا .. ولكن نحن مؤمنون ولنكن أرحم منهم !

فأجاب الأرناؤوطى :

— أمرٌ آخر يا سيدى . إننا فصلنا رؤوسهم حتى يمكنكم أن ترسلوا بها إلى القاهرة .. فإن «محمد على باشا» سوف يكون فى حاجة إليها هناك ..

ولقد حدث ما فكر فيه الأرناؤوطى . . فأرسلت الأسرى إلى القاهرة فى القوارب ، وشحنت معهم رؤوس تسعين من زملائهم القتلى .. ومن بينها رأس « ويكوب » .. كان « فريزر » يحلم بأن يسيطر « ويكوب » على النيل .. فسخر منهما القدر .. وسيطر النيل على رأسه . .

وعندما وصلت الرؤوس إلى القاهرة ، وضعت على أطراف الحراب ، وطيف بها فى الشوارع حول بركة الأزبكية .. ولما رأى « محمدعلى باشا » الرؤوس بعينيه — وكان قد عاد من الصعيد ليدبر هربه إلى « سوريا » — عدل عن الهرب . . وارتفعت الروح المعنوية بين الشعب . وأعلن «عمر مكرم» نقيب الأشراف الجهاد . . وأمر طلاب الأزهر بترك مدارسهم إيذاناً بطرد العدو من البلاد بأسرها[1] .

---

(١) الجبرتى .

وفرحت رشيد بالنصر فى اليوم الباسم آخره ، وفرحت ثانية لما علمت بما دار فى القاهرة ..

وراح الحاكم بعد المعركة يطوف بالأهلين فى رشيد ليهنئهم بالنصر وليقدم العزاء إلى أسر الشهداء الذين استشهدوا فى المعركة ويضمد الجراح التى خلفتها المعركة فى القلوب ..

وعاد الرجل إلى بيته وجلس هادئاً آمناً .. وجلس أمامه ابنه الصغير « طارق » يعبث بمراكبه الصغيرة .. وبين الحين والحين كان يجرى الصغير ليعانق أباه ويعلق يديه برقبته ، ثم يعاود لهوه ، وكان « مراد باشا » جالساً أمام الحاكم يشهد هذا المنظر . فضحك طويلا وقال يداعب الحاكم :

— يظهر أن «طارق» يقوم من حين لحين ليتأكد من أن رقبتك ما زالت سليمة يا « طاهر بك » .

وضحك الرجلان .. إن أهالى رشيد لا ينسون الدعابة حتى فى أيام المحن .. وصمت طاهر بك طويلا .. ثم قال لمراد باشا :

— سأقص عليك يا باشا قصة غريبة عن «طارق» هذا . فقد تدهش أنه هو الذى ألهمنى تدبير الأمس ضد الأعداء . فعندما جاءت زوجة ابنى إبراهيم إلى هذا البيت علمت « طارق » هذا كيف يصنع قوارب الورق. وفى ذات يوم صنع منها عدداً كبيراً ، وأخذ يعبث بها . ثم رأيته وهو

يتحدث مع أسطوله الصغير ، فضحكت طويلا فى نفسى وقلت له : « لعله أسطول طارق بن زياد » وليس ابن طاهر . ولما ذهبت ليلتها للنوم حلمت بقصة « طارق بن زياد » وكيف أحرق مراكبه ليوئس رجاله من الطمع فى النجاة . وجعلت من يومها أفكر فى « ابن زياد » هذا . وعجبت لنفسى كيف استطاع « طارق » أن يهزم الأندلسيين وعددهم مائة ألف ، بجيشه الذى لم يتجاوز اثنى عشر ألفا[1] .. وعندئذ خطر لى أن أنقل مراكب البلد بعيداً إلى الشاطىء الشرقى عند مجىء الإنجليز .

فعجب « مراد باشا » وقال مبتسما :

— وبذلك تكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد .. تخدع الإنجليز فتجعلهم يظنون أننا فررنا من أمامهم ، وفى الوقت نفسه تجعل أهل « رشيد » يبقون فى دورهم ثابتين لا يفكرون إلا فى الذود عنها ..

واستطرد الباشا قائلا :

— حقاً إنه يوم مجيد ! .. من يدرى فقد يقرن ٣١ مارس باسم « رشيد » كما قرن جبل طارق بابن زياد على مر الأيام ..

---

(١) فتح طارق بن زياد الأندلس فى القرن الثامن، وظلت أسبانيا تخضع للعرب قرابة ثمانية قرون . وأرقام الجيوش بعاليه من التاريخ .

وأغرق الجميع فى الضحك ..

وعلى أثر هذا الحديث تذكر « طارق الصغير » أمراً فجرى مهرولا خارج الغرفة تاركا لعبه ! وهنا دخل إبراهيم طاهر ابن الحاكم ، وكان يبدو عليه الحزن الممض :

— أبى .. لقد وجدنا إبراهيم جاد الله مقتولا فى داخل مسجد أغلول !

وبكى الرجل . وبكت رشيد بأسرها ، وحزنت على البطل الشهيد .. ووجم الحاكم[1] والقائد ..

واستطرد إبراهيم طاهر يقول :

— أبى .. ألم تلحظ أن صوت الأذان لم يكن صوت « إبراهيم جاد الله » ؟

— بلى ، يا بنى . أدركت ذلك .. ولكن من الذى أذن يا ترى ؟ يبدو لى أن صوته ليس غريباً عن أذنى ..

وهكذا قال كل أهل البلدة جميعا .. إن الصوت الذى أدى الأذان يكن غريباً عن آذانهم ..

وعاد طارق يجرى لاهثاً وقال صائحاً :

---

(١) اشتد الحزن به حتى أمسك عن الكلام .

— أبى أبى ! إنى لا أجد أثراً « لدرة » ولا «لجميلة» .. أين هما ؟ ..

وقال الحاكم :

— هذا حق أين هما ؟.. أنى لم أر بالأمس سوى جميلة وكانت معنا فى القبو .. أما « درة » فلم أرها منذ فترة طويلة .. إبحث عنهما يا إبراهيم فقد أنستنا المعركة كل شىء . حتى نساءنا ! ..

وأكد إبراهيم طاهر كلام أبيه . ثم قال وقد تذكر شيئاً :

— والدى .. ألم تذكر أننا سمعنا صرخة داخل القبو عندما انطلق الأذان .

— بلى .. سمعت صياحاً أعتقد أنه صدر من جميلة الرشيدى ..

— نعم وأنا أيضاً سمعتها تقول شيئا غريبا .. لقد قالت ما معناه :

لقد عاد أبى .. لقد عاد أبي .. أنه هو الذى يؤذن . ولم يلتفت أحد منا إليها لأننا انشغلنا بالمعركة ساعتئذ ..

— إنه هذيان منها يا بنى .. فكثيراً ما كانت تأتى « جميلة » مثل هذه النوبات فى صغرها بعدما فقدت أباها وأسرتها .

— هذا عجب ! وإذا كان « إبراهيم جاد الله » لم يؤد الأذان بنفسه ، فمن الذى أذن !!

— لا أدرى يا بنى !

وما كان لأحد أن يدرى ! فقد كان الأذان سراً لا يعلمه سوى اثنين . الرجل المقنع نفسه ، و « إبراهيم جاد الله » الذى مات واندفن معه السر ! ..

وخرج « إبراهيم » بن طاهر بك الحاكم يبحث عن جميلة فى القبو .. وهناك وجدها مغمى عليها .. وتحت رأسها وسادة وفوقها ملاءة بيضاء .

وصحت الفتاة . وعندما فتحت عينيها قامت صارخة ..

— أين هو .. أين هو ؟ ..

فسألها إبراهيم . من تقصدين ؟

— أبى ! . أبى . لقد عاد أبى ! . « جابر الرشيدى » ..

إنه هو الذى أدى الأذان . لقد جاءنى إلى هنا . لقد رأيته بعينى . أين هو ؟ .

وحملها إبراهيم إلى غرفتها . وأخذ يهدىء من روعها .. وغابت فى النوم من جديد . وعند الغروب استيقظت « جميلة » ، وكانت قد ملكت بعض عافيتها . وأخذت تتحدث فى هدوء وكل أهل البيت ينصتون إليها من حولها ..

قالت الفتاة وهى تجلس فى فراشها :

— أنتم لا تصدقوننى ، ولكنها الحقيقة .. إن الذى أذن الأذان

هو والدى بعينه . أقسم أنه صوته ونبراته ، ولقد جاءنى وأنا نائمة فى القبو .. وضمنى إلى صدره . ووضع تحت رأسى الوسادة كما وضع فوق جسمى الملاءة البيضاء ، ولا أدرى من أين جاء بهما .

ثم ارتفع صوتها صائحة :

— إن أحداً منكم لم يغطنى ، ولم يسند رأسى .. أليس كذلك ؟

ونظر الجميع بعضهم إلى بعض .. ولم يقل واحد منهم أنه هو الذى فعل ذلك . واتجهت الأنظار إلى أم إبراهيم زوجة الحاكم . ولكنها مطت شفتيها ولم تجب . كانوا ينتظرون منها أن تحدثهم بشىء . فخاب ظنهم ، وتساءلوا فى نفوسهم عن الذى زار الفتاة وهى نائمة .

واستطردت الفتاة قائلة :

— ألا تذكرون صوت أبى ؟ . إنى أعرف أن « إبراهيم جادالله » هو الذى كان مفروضا أن يؤذن الليلة . فهل هو الذى أذن ؟ .. ابعثوا به إلىّ وأنا أسأله ، وسوف يؤيد قولى ، ابعثوا به إلىّ .

ووجم الحاضرون ، وأطرقوا برؤوسهم .. ولم يجرؤ أحد منهم أن ينبئها بالفاجعة . لقد فقدت هذه الفتاة كل أهلها من قبل .. واليوم يلحق بهم صديق وفى لهم .

.. ولمحت « جميلة » ما فى أعينهم .. وفزعت .. وغطت وجهها بيديها وقالت :

— هل مات هو الآخر ؟ ..

وراحت تبكى بكاءاً مراً .

ولما هدأت قليلا من بكائها ، مال عليها إبراهيم طاهر وقال وهو يغض[1] من صوته :

— هل رأيت زوجتى « درة » يا جميلة ؟ ...

وصمتت جميلة .. إنها تعرف أين « درة » .. فهى التى خبأتها منذ عصر الأمس حتى لا تهرب أو يفتضح أمرها . لقد خطر لها أن «محسناً» شقيق « إبراهيم جاد الله » يمكنه أن يؤدى لها هذا الأمر .. فكل عائلة جادالله لا ترفض لجميلة طلباً حتى «محسن» الذى عرف باستهتاره .. فلما أرسلت إليه « جميلة » جاءها وطلبت منه أن يخبىء « درة » فى مكان أمين حتى تنتهى المعركة .. وأن يرقبها جيداً . ثم رجته ألا يبوح لإنسان بهذا السر . فوعدها الرجل ..

ومن الغريب أن « محسناً» الذى دأب فى حياته أن يستهتر بالوعود أصر فى نفسه هذه المرة أن يحترم هذا الوعد .. ومن الغريب أن هذا الوعد الأول الذى تمسك به «محسن» ، كان سببا فى قلب حياته رأسا على عقب !!

---

(١) يخفض .

وأخذت الخواطر تدور سريعة متلاحقة فى رأسها .. حتى تذكرت « درة » . لقد أوصت محسن أن يخبئها فى مكان أمين ، وأن يحتفظ بالأمر سراً فى نفسه وقد وعدها بذلك .. وتساءلت هل سيفى بوعده ؟ إنها تشعر أن كل أسرة جاد الله إخوة لها يحفظون عهدها .. حتى محسن برغم ما يتقوله الناس عنه !

ولم تمض ساعة حتى عادت « درة » إلى الدار .. وجرت نحو « جميلة » وهى تبكى قائلة :

— هل لديك أخبار عن أبى يا « جميلة » ؟ . لقد كانت ليلة الأمس مروعة .

وأخذت « جميلة » تطمئنها .. ثم سألتها كيف قضت الليلة ؟ فحكت لها « لها درة » :

— لقد أخذنى « محسن » إلى زوجة « بنى » العجوز صاحب « حانة الثغر » فأمضيت الليلة معها فى غرفتها .. أما « محسن » فقد ظل مترقباً الليل كله مع العجوز فى ردهة الحانة ولم ينم أحد منا تلك الليلة .. فكانت طلقات الرصاص تبلغ آذننا مختلطة بالصراخ .

وأغمضت الفتاة عينيها وأخذت تبكى وقالت :

— يا إلهى . لماذا يحاربون ؟ لماذا يعتدون ويسفكون الدماء ؟ أهكذا يكرهون السلام !!

وسألتها (جميلة) :

— وكيف محسن ؟..

— بخير . يبلغك سلامه .. لقد رأيته يبكى طويلا .. ساعة أن أنبأه العجوز (ينى) بمقتل أخيه (إبراهيم جاد الله) ..

قفزت « جميلة » فوق الفراش واقفة عندما سمعت هذا النبأ.. وحاولت أن تصرخ ولكنها امتنعت ووجمت ..

لقد تعلمت من المحن أن الأحزان لا ينفع الصراخ معها بشىء .. فانثنت وجلست . ووضعت رأسها بين ركبتيها .. وغابت فى بكاء طويل مكبوت ..

وبدأت « درة » تقلق على أبيها ..

ولكن قلقها لم يدم طويلا ! . فسرعان ما جاءها نبأ مقتله هو الآخر .. لقد عثروا على جثته فى مكان قريب من البلدة .. عثروا عليها بين جثث قادة الأعداء فى دار القنصلية ..

.. لم يدر قطان باشا بأمر الخديعة التى لعب فيها آم دور وهو غافل .. وعندما دخل الإنجليز « رشيد » ذهب لمقابلتهم هناك فى المساء

ليشاركهم حفلهم[1] وابتهاجهم بالنصر .. ولما حانت ساعة الهجوم .. سمع الإنجليز دوى الرصاص ، فأدركوا موقفهم .. عندئذ نظر « ولنجتن » إلى «الباشا» والشرر يتطاير من عينيه وقال له : أنت كذبت علينا . وقتله بالرصاص ! ..

ووقع الرجل على الأرض وانكفأ على وجهه .. وهجم المتطوعون على الدار وقتلوا القادة المخمورين وهم يحاولون الفرار .. ولم يلحظ أحد منهم جثة الباشا الثرى الملقاة على الأرض إلا عند ظهر اليوم .. عندما جاء جنود الأرناؤوط .

وتهامس الناس .. ما الذى جعل قطان باشا يذهب لمقابلة الإنجليز فى القنصلية ! ولم يكن أحد يعلم سر (الجاسوس ٥٦٦) سوى ابنته (درة) و (جميلة الرشيدى) ، ورجل مات هو (إبراهيم جاد الله) .. أما محسن فلم تحك له (جميلة) حقيقة القصة .. ولم يسألها محسن شيئاً .. وإنما أدى واجبه صامتاً وقد وعد ألا يبوح[2] بشىء ..

ولكن ترى إلى متى سيظل محسن محتفظاً بهذا السر ؟

لقد وقع ما لم يكن فى حسبان الجميع ..

---

(١) جاء فى التاريخ أن قنصل رشيد دعا قادة الانجليز إلى حفل صاخب ابتهاجا بالنصر مساء دخولهم رشيد (مسعود) .

(٢) يبوح بالسر : يظهره ويفشيه .

ولم ير محسن فى حياته يوماً أسوأ من هذا اليوم ، ولم تتوال المحن عليه بقدر ما توالت منذ ذلك التاريخ .

فعند ما اصطحب محسن «درة» الى زوجة العجوز صاحب الحانة لمحه حسن عاصم ـ ابن عم وداد عاصم خطيبته ـ وكان واقفا بباب الحانة . وكانت (درة) محتجبة الوجه ، وظهرت من تحت حجابها خصلات من شعرها الأصفر الجميل .

وابتسم (حسن عاصم) ابتسامة صفراء وأسر فى نفسه سوءاً .

لقد أقسم (حسن عاصم) ذات يوم أن ينتقم من (وداد) التى رفضت الزواج منه لتقترن [1] بهذا المستهتر الماجن . والآن قد سنحت اليه فرصة الانتقام وحدها .. أليست الأقدار هى التى تعاونه بكل وسعها فى فسخ [2] هذا الزواج ؟ لقد تأجل هذا الزواج وحده مرة عند مقدم الأعداء .. والآن وقد رحلوا عن البلدة .. ها هى الفرصـــة تواتيه لتأجيله إلى الأبد !

وانطلق « حسن » يعدو فرحاً إلى بيته ، تملأ صـــدره نشوة الانتقام .

---

(١) تتزوج منه .

(٢) الفسخ : النقض والإلغاء .

وكان أن دارت المعركة بالليل .. وانتهت مع الصباح .

واشتركت أسرة عاصم فى قتل جنود الإنجليز .. حتى أن «وداد» استطاعت أن تقتل واحداً منهم كان يختبىء بحديقة قصر أبيها تحت نافذتها .. أطلقت عليه النار من إحدى البنادق التى يحتفظ بها (عاصم بك) فى بيته .

ونام الجميع فى ضحى اليوم بعد انتهاء المعركة ، وفرار الأعداء .

ولما استيقظت «وداد» وجدت ورقة مطوية ملقاة على أرض الحجرة تحت نافذتها المفتوحة .

ولفتت الورقة نظرها ، فقامت وفتحتها لتقرأها وهى تتثاءب .. واحمر وجهها وغضبت ، وأعادت قراءة الورقة من جديد .

كان بها الكلمات التالية :

« إسألى خطيبك (محسناً) أين أمضى ليلة المعركة !

« دعيه يقول لك من هى المرأة ذات الشعر الأصفر .

« التى قضى معها الليل فى (حانة الثغر) !

« لقد ضرب خطيبك فى ذات يوم كلبا مسعورا ، وقتلت

---

(١) سنحت له وتهيأت .

« أنت ليلة الأمس واحداً من جنود الأعداء .

« فاسأليه هل قتل أحداً منهم بالخانة أمس ؟

« أم إنه كان منشغلا بما هو أهم ؟

« مما يؤسف حقا أن (وداد) عاصم ستتزوج نذلا عربيدا .

الامضاء : (ممن يحب لك الخير والسعادة)

وبكت (وداد) .. وملأها الغيظ والغضب . وفى البيت المجاور لبيتها كان حسن ابن عمها يضحك ملء شدقيه [1]

حاولت (وداد) أن تطرد شبح هذه الورقة من مخيلتها وأن تعدها هذرا [2] صبيانيا من أحد الكارهين لحسن ، لكن يبدو أن الظروف كلها قد اتفقت ضد الرجل فى هذا اليوم .

فقد همست زوجة (يني) العجوز فى أذن إحدى معارفها عن أمر حسن والسيدة التى اصطحبها معه الى الحان . وطلب منها أن تكتم هذا السر .

وسرعان ما طار الخبر من سيدة إلى أخرى ومن بيت إلى بيت وكل من تحكيه كانت تطلب من صاحبتها أن تعده سراً وألا تذيعه .

---

(١) الشدق : جانب الفم

(٢) الهذر : الهذيان

وفى كل مرة ينقل فيها السر كان يتطور وفقاً لأهواء الحاكية والسامعة معاً حتى بلغ فى نهاية الأمر (وداد) شغيفا مجسما إلى درجة أن تضاءل ما قرأته من كلمات الورقة المجهولة .

وتألمت (وداد) طويلا فى نفسها من (محسن) ، وعزمت فى نفسها على أمر !

سوف تسأل محسن أين قضى ليلة أمس .. ومن من الناس كان معه ؟

فاذا لم يعطها إجابة صحيحة شافية فسوف ترفض الزواج منه !

وأرسلت اليه تسأله . وصمت (محسن) ولم يجب .

وفى هذا اليوم بلغ (محسنا) مقتل أخيه (إبراهيم جاد الله) .

وفى هذا اليوم بلغه رفض (وداد) وأبيها الزواج منه .

وفى هذا اليوم قرر الشيخ جاد الله ألا يعيش ابنه محسن معه فى بيت واحد .

فقد بلغت الإشاعة الكريهة الشيخ ، وبينما كان القوم يشيعون جنازة ابراهيم جاد الله البطل ، كان بينهم من يحكى عن قصة (محسن) فى الحانة هو والمرأة ذات الشعر الأصفر .

ويتعجب السامع فيقول : يا إلهى ! حتى فى ليلة المعركة !

ورغم هذا الظلم الكبير الذى نال من قلب محسن ، فقد استمر صامتاً لا يحدث أحدا بشىء ، لقد وعد (جميلة) وكان أول وعد فى حياته . وأصر أن يحفظ هذا الوعد مهما كلفه من ثمن . وكلفه هذا الوعد كثيراً . كلفه سمعته ، وحبه ، وبيته ... وغادر دار أبيه لايلوى على شىء .

وعندما ذهب الحاكم ليقدم العزاء للشيخ (جاد الله) التفت اليه الشيخ وقال فى صوت قوى هادىء :

— لا يا طاهر بك . لا تعزني فى ابراهيم ابنى ، ولكن عزنى فى محسن . إن محسناً هو الذى مات من حياتى . أما ابراهيم فلا تحسبنه مات . بل هو حى يرزق عند ربه .

ومنذ هذا اليوم خيم الحزن والصمت على أسرة جاد الله واتشحت (١) الأم الحزينة بالسواد .

وظلت تبكى النهار والليل .

وكانت تدوى فى أذنها عبارة واحدة قالها زوجها فى هدوء وحزن ..

— لقد ثكلنا ولدينا .

حقاً لقد ثكلت ولديها . فقد مات واحد ، ورحل الآخر عن المدينة ..

---

(١) اتشحت أو توشحت : لبست (من وشح ووشاح)

الحصار

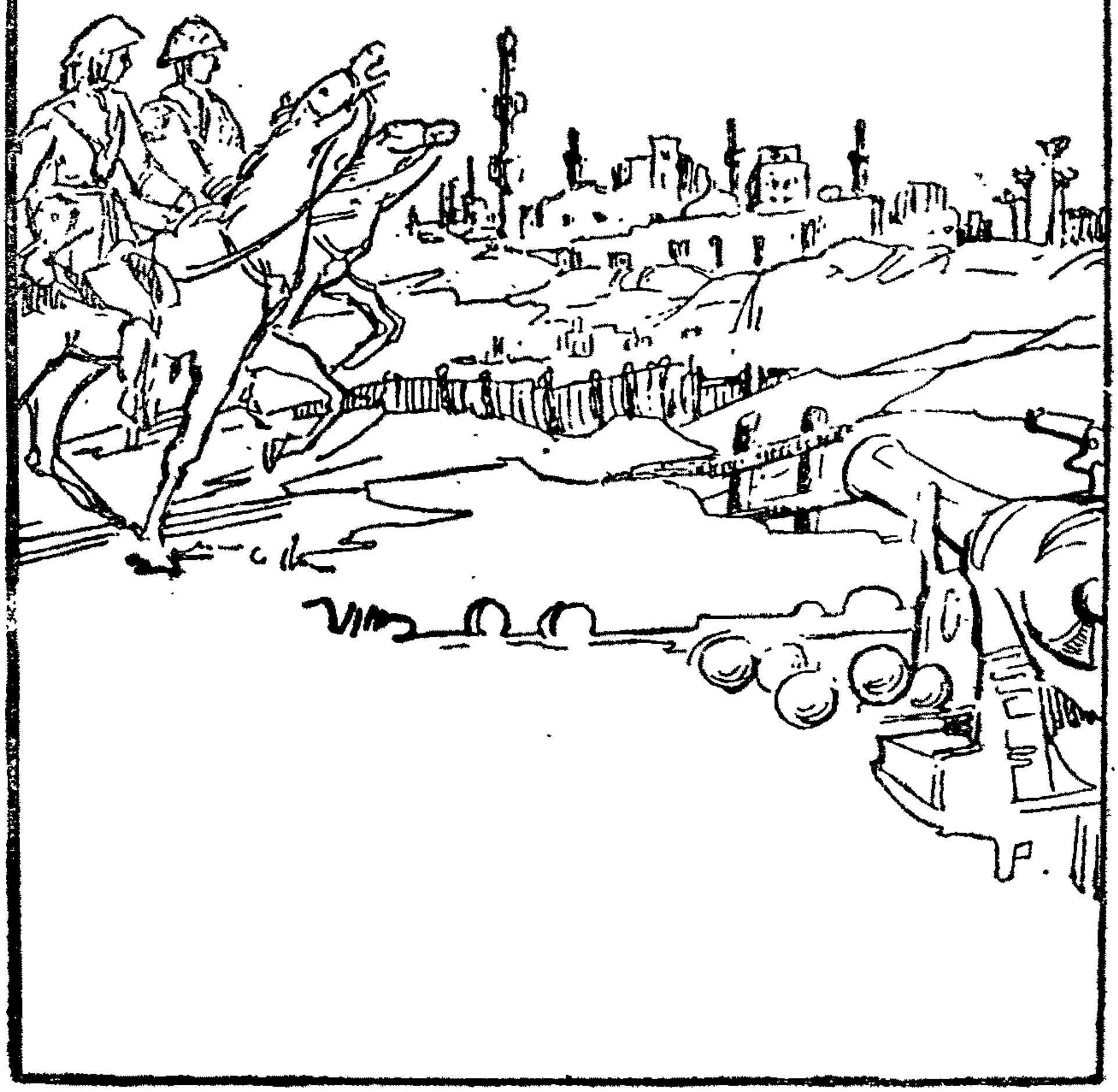

١٣

ترك محسن البلدة ، وراح يهيم على وجهه ، واتخذ سبيله نحو الجنوب وفى الطريق ظلت مخيلته تستعرض شريط الأحداث التى صادفته فى أيامه الأخيرة فى أسى وذهول .

منذ أن دنست أقدام الأعداء أرض (أبى مندور) والمحن لا تكاد تفارقه . لقد جاءوا وجروا النحس فى أذيالهم ، وتأجل زفافه الى (وداد) الفتاة التى أحبها من قلبه . ثم كانت ليلة المعركة التى فقد فيها شقيقه . ثم فقد كيانه وسمعته . ثم فقد عطف أبيه وأمه ، وأخيرا فقد « وداد » من حياته !

ولم يبق له شىء فى (رشيد) البلد الذى درج [1] فيه . وارتبط إليه بأسمى العواطف .

وكانت قدماه تسيران متثاقلين فوق الرمال الناعمة . . وراح يضرب على غير هدى . . وفوق الطريق كانت عيناه تلمحان آثاراً لآلاف الأقدام التى خلفها جنود الأعداء الهاربين ، وكانت تتجه

---

(١) نشأ فيه وتربى

كلها نحو الجنوب بعيدا عن « رشيد » . حيث ذاقوا الكأس المرة .

وراحت البلدة تحتجب من خلفه ، وتوارت [١] قلاع السفن فى الشمال وبعد ساعات ألفى [٢] نفسه وحيدا فى الأفق الرحيب .

لا تقع عيناه إلا على أرض خالية جرداء كقلبه ونفسه !

ولم تكن هذه الأرض إلا مسرحا لتحرك المغتصبين من الأعداء ولبعض الأعداء الرحل ، واستبد به التعب . فجلس عند جذع نخلة صغيرة وغلبه النعاس . فنام وقلبه مفعم [٣] بالأسى .

وحل الظلام . وتسلل البرد إلى أطرافه . وبدأ يفيق من النوم . فلما فتح عينيه وجد أمامه ثلاثة رجال مدججين بالسلاح . كانوا من العرب الرحل . وأجفل [٤] فى بادىء الأمر وقد حسبهم من رجال الأعداء . ثم حمد الله فى نفسه .

وحدثه الرجال لقد ظنوه هم أيضا جنديا متخلفا من رجال الأعداء

---

(١) اختفت واستترت

(٢) وجد نفسه

(٣) مملوء . وأفعم الأناء ملأه .

(٤) انزعج وهرب مسرعاً

لماربين ، فلما عرفوا أنه من أهالى « رشيد » أخذوه معهم الى كوخهم على شاطىء إحدى البحيرات ، وهناك أطعموه وأكرموه ، وهناك عرف أغرب سر من الأسرار . كان هؤلاء الرجال يعملون تحت إمرة رئيس يعرف بالصديق المقنع ، وهم يغيرون النهار والليل على قوافل الأعداء ومراكزهم ، ويخطفون منها الجنود ويأسرونهم ، ولقد أسروا اليوم ستة رجال من الإنجليز وهم يفرون فرادى .

وكان المقنع يحصل على معلومات كثيرة عن العـــــدو من مثل هؤلاء الأسرى ، واشتاق محسن لأن يعرف حقيقة الرجل المقنع فسأل رجاله :

— ومن هو رئيسكم المقنع هذا ؟ .

وصمت الرجال ولم يحيروا جواباً .

وعاش محسن معهم ثلاثة أيام ، وتاقت نفسه لأن يرى الرجل بعينه وكاد ينسى أحداث «رشيد» !

وفى فجر اليوم الرابع حدث هرج ومرج [1] على شاطىء البحيرة ، ولمح من بعيد ثلة من الرجال يقبلون عليهم وهم يمتطون الخيل . وكان

---

(١) الهرج والمرج : الاضطراب والاختلاط .

بينهم الرجل المقنع ! ووقع بصر محسن عليه فأحس حياله بهيبة . كان الرجل يتشح بالسواد من أعلى هامته حتى أخمص قدميه . ولم يلمح من خلف القناع إلا إحدى عينيه وكانت سوداء لامعة تتحرك فى ذكاء .. وهبط المقنع سريعاً ، واندفع يغيب فى كوخه وهرع إليه الرجال الثلاثة الذين تعرف محسن بهم .

ولما خرجوا من عنده قابلوا محسناً ، وأبلغوه بخبر سىء وقع من نفسه وقعا مؤسياً . سيعود الأعداء اليوم الى (رشيد) فى قوة كبيرة تبلغ ضعف قوتهم الأولى[1] وسوف يحتلون (أبا مندور) و (الحماد)[2] لقد عزموا على الانتقـــام من البلدة التى هزأت بهم منذ أربع ليال . .

وأطرق محسن برأسه وفكر طويلا .. ثم نهض من مكانه وولى ظهره للبحيرة . . وتحركت قدماه عائداً نحو الشمال . . صوب رشيد .

وبلغ (أبا مندور) عند المساء .. ولمح البلدة الحبيبة عند أسفل

---

(١) ٤٠٠٠ مقاتل ، ١١ مدفع من مختلف الأعيرة « التاريخ العسكرى للحملة » .

(٢) الحماد قرية على فرع النيل ، تقع جنوبى رشيد بحوالى ١٢ كم . وموقعها يأخذ شكل عنق الزجاجة بين النيل وبحيرة ادكو .

الربوة . . ووقعت عيناه على صفحة النيل . . ثم اتجه بصره إلى مئذنة مسجد زغلول .. المئذنة التى استشهد أخوه تحتها . ولم يتمالك نفسه من البكاء .

وظل يعدو نحو البلدة حتى بلغ المسجد . وكان يصيح كالمحموم كلما رأى نفراً فى طريقه من أهل البلدة . . (لقـــد عاد الآثمون) . . (لقد عاد الآثمون) .

ولم يلتفت الناس اليه . كان منظره أشبه بمن يهذى ، وعند ما بلغ ردهة المسجد وقع على الأرض ، وقد غشيته [1] الحمى .

وفى ٧ ابريل عاد الآثمون .. بعد مضى سبعة أيام من اليوم الذى امتلأت فيه نفوسهم بالمرارة حتى حلوقهم .

عادوا لينتقموا فى نذالة ووحشية .

لقد عقدوا العزم على تطويق (رشيد) من الجنوب حتى لا يبلغها أية مؤن أو امداد من (القاهرة) .. وخلف (ويكوب) قائد داهية جديد هو الجنرال (ستيوارت) ، واصطحب معه عدداً كبيراً من المدافع الثقيلة ، وبلغ (أبا مندور) ونصب المدافع فوق الربوة العالية ، وصوب فوهاتها إلى البلدة الآمنة . ثم دفع قوة كبيرة من الجنود إلى (الحماد) ، فى

---

(١) جاءته وداهمته

الجنوب من (رشيد) بين النيل وبحيرة (ادكو) ليعزل رشيد تماما عن باقى القطر ·

وكان (ستيوارت) يحس العقدة النفسية التى أصابت جنوده إثر حادثة رشيد المروعة ! فاكتفى بأن يحتل المراكز البعيدة عن البلدة ، وأن يصلى دورها ناراً تتساقط عليهم من بعيد ، حيث يرقد هو وجنوده فى مأمن حصين من فتك الأهلين ، ولم يتفتق ذهنه عن خطة أكثر من هذه نذالة وجبناً لكى يتبعها ·

وفى فجر هذا اليوم العابس ، صحا الأهلون على صوت الحمم [1] تتساقط فوق دورهم ·

ووجه المنتقمون أول قذيفة لهم على مسجد زغلول ليفتكوا بالخاشعين لله ، ولينتقموا من المئذنة التى أذنت بحصادهم ، وهدمت القذيفة جزءا من الجامع كما هدمت نصف المئذنة التى ظل نصفها الباقى مشرعا [2] حتى يومنا هذا ، يسخر من كل غاصب أثيم . وانهار جدار من جدر المسجد قريبا من أقدام محسن ، وكان ينام نهاره وليله عليلا فى فناء المسجد فى نفس المكان الذى سقط فيه أخوه ابراهيم شهيدا ·

---

(١) الحمم : كتل النار المحترقة ·

(٢) قائماً : مرتفعا كالشراع ·

وتململ محسن قليلا فى مرقده ، ونام من جديد وهو لا يعى شيئا ..

وظلت مدفعية الأعداء تمطر المدينة صباحاً ومساء بالقنابل ، وتهاوت الدور الآمنة ، الدار تلو الدار .

ومرت الأيام ثقيلة متباطئة ، والبلدة منعزلة عن باقى القطر تنتظر أن تبلغها النجدة والمؤن من القاهرة ، ولكن امتنع عنها كل شىء ، عدا حمم النار .. كانت تبلغ البلدة موفورة .. من الجحيم الذى عقده (١) الأعداء فوق الربوة العالية .

وبعد سبعة أيام من الضرب المتواصل بعث (ستيوارت) إلى طاهر بك حاكم البلدة يطلب منه التسليم حقنا للدماء (٢) .

فأبى الرجل . وأبى كل الرجال من حوله .

وعندئذ تساقطت قنبلة أطاحت (٣) الجناح الغربى من داره ، وكانت (درة) إبنة قطان باشا تقيم وحدها بهذا الجناح فى حزن وكآبة بعد موت أبيها . وكانت ترفض أن تنزل فى الأقبية السفلى للدار ، حيث أقام بها

---

(١) أقاموه فى تصميم .

(٢) منعا لسفك الدماء .

(٣) دمرته وأسقطته .

أهل البيت ليحتموا من شر القنابل . وكأنما رغبت (درة) أن تخلص من الحياة وتنتحر بيد الأعداء ، فلقيت ما تمنته وماتت تحت أنقاض الجناح الذى هوى . ماتت بنفس اليد التى فتكت بأبيها من قبل بعد أن غررت (١) به .. يد الآثمين .

وأسلمت الفتاة البائسة الروح ، ولم تستطع جميلة أن تمنع نفسها من البكاء فوق جثتها ، ونظرت إلى السماء وابتهلت إلى الله أن يغفر (لدرة) ذنبها ، أما سر أبيها الخائن فاحتفظت به فى قلبها الطاهر لا تطلع عليه أحداً .

أما (طارق) الصغير فقد كره مراكبه بعد أن ماتت (درة) وحزن عليها حزنا عميقا ، وسأل أباه :

— لماذا جاءت إلى بيتنا يا أبى ما دامت كانت تنوى أن تموت ! .

ومسح الرجل بيده على جبين الطفل وقال له :

— هذه يا بنى إرادة الله .

وصمت الطفل .

أما زوجة الشيخ جاد الله فقد فقدت السمع والنطق مع القذيفة

---

(٤) خدعته واستغفلته .

الأولى ! ولعل الأقدار شاءت أن تبلوها [١] بذلك النقص حتى تصبح أكثر تحملا لملاقاة الأهوال ، لم تعد تسمع شيئا من المحن ، وراح زوجها الشيخ يجلس بجانبها يتمتم فى هدوء «إن ينصركم الله فلا غالب لكم» وكان لا ينفك عن ترديدها اليوم طوله . كان الرجل مؤمنا لم يعرف اليأس يوما طريقا الى قلبه .

ولم يخل بيت قائم فى (رشيد) من الحزن والأسى .

وفى كل دقيقة تمر كان ينهار بيت جديد

وفى ذات يوم أصابت إحدى القنابل البيت المجاور لبيت (وداد عاصم) ، وقامت (وداد) إلى النافذة لترقب ما حدث .. كان البيت الذى تهاوى هو بيت عم (وداد) والد (حسن عاصم)

ووقع نظر (وداد) على غرفة (حسن) وقد أصبح عاليها سافلها ، فوضعت رأسها بين كفيها ، وراحت تحدق بعينها ساهمة ، كأنما لا ترى شيئا ، فمنذ أن فسخت خطوبتها من محسن ، وعلمت رحيله عن البلدة ، تولاها حزن عميق ، حتى أن صوت القنابل وانهيار الدور لم يكن يبعث

---

(١) تختبرها وتمتحنها بالمحن (من الابتلاء بمعنى الامتحان، ومنه قول الله تعالى: « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ... الآية » .

فى نفسها إلا الجمود والتبلد ! وتعالى الصياح ، وأسرع خدم أبيها ينقذون أهل الدار المنكوبة وعثروا على (حسن عاصم) بين الحياة والموت فنقلوه إلى بيت وداد ، وهناك طلب منهم جرعة من الماء فأحضروها إليه . فلما شربها طلب أن يرى (وداد) ليسر[1] لها أمراً .

فجاءته واجمة ، وقال فى حشرجة :

— وداد اغفرى لى . لقد أذنبت فى حقك وحق محسن .

أنا الذى رميت الورقة فى غرفتك . لقد علمت فيما بعد من صاحب الحانة أن محسن لم يصحب الفتاة إلا لأمر برىء . إغفرى لى يا وداد . لقد كنت مدفوعاً بالغيرة ، وبحبك .

وأسلم الروح .

ولما سمعت (وداد) كلمات (حسن) أجهشت[2] فى بكاء طويل، وأخذ صدرها يعلو وينخفض فى قوة .

كانت هذه أول مرة تبكى فيها منذ أيام .

وفى نفس اليوم زارتها (جميلة الرشيدى) وطلبت مقابلتها على انفراد واستهلت[3] جميلة الحديث وقالت :

---

(١) ليفضى اليها بسر .
(٢) الجهش والإجهاش : فزع الإنسان إلى غيره يريد البكاء .
(٣) بدأت هى بالحديث .

— فى هذه الأيام القاسية ، ينبغى على المرء أن يخلص ضميره مما يثقله .

واستمعت (وداد) إليها وهى تنظر نحوها بعينين فى لون الدم .

— إن محسناً برىء مما سمعته عنه .

وأخذت تقص لها الأمر من أول حبات الخرز ، حتى ليلة المعركة التى طلبت فيها من محسن أن يحتجز (درة) فى مكان خفى ، وأنهت حديثها بقولها :

— واليوم ماتت (درة) فلم يبق من يخشى أمر هذا السر .

وتذكرت (وداد) ما سمعته من الناس عن جثة قطان باشا التى وجدوها فى داخل القنصلية الإنجليزية ليلة المعركة . فلم تتشكك فى القصة .

ولم تدر (وداد) أتفرح بهذا النبأ ، أم تزداد حزنا .

وعادت جميلة تقول لها :

— شىء آخر يا وداد ، عدينى ألا تبوحى بأمر هـــذا السر لأحد .

وسألتها وداد معاتبة :

— ممن تخشين بعد ؟ إن إذاعة هذا السر أصبحت أمراً واجباً لسبب واحـد ؛ فأنت تعلمين ما جرى لحسن مع أبيـه وما حل بسـمعته أمام الناس ! أليس من الواجب أن يعلم الجميـع حقيقة الأمر ؟.

— لقد فـكرت فى ذلك أيضا .. ولـكن هنـاك شيئا أحسب حسابه .

وبدا الحزن على وجه (جميلة) واستطردت [1] وهى تجفف دمعة فى عينيها :

— إن من الأسباب القوية التى جعلتنى أكتم سر (درة) هو قرابتها لطاهر بك ، فلم أحب من بادىء الأمر أن يقال إن حاكم البلدة زوّج ابنه من جاسوسة ، وعندئذ تفقد البلدة ثقتها بالرجل ، بل كان الناس يفقدون ثقتهم بعضهم فى بعض .

وبدا الاقتناع على وجه (وداد) ، وأكملت (جميلة) حديثها :

— هذا جانب من الأمر ، ومن جانب آخر لقد أحبت أسرة طاهر بك الفتاة ، من أول زوجته حتى ابنه الصغير طارق .ولم أشأ أن أصدمهم فى عواطفهم .

---

(١) تابعت حديثها

وعندئذ دمعت عينا (وداد) فقالت لجميلة :

— إلى هذا الحد أنت نبيلة (ياجميلة) ؟ . بارك الله فيك.

وتذكرت وداد شيئاً فقالت :

— وأعاد الله لك والدك .

وكانت هذه أحب دعوة إلى قلب الفتاة البائسة .

وشكرتها « جميلة » وأتمت حديثها قائلة :

— أما أمر محسن من أبيه فقد فكرت فيه أيضا وأنهيته قبل مجيئى إليك . فقد زرت الشيخ جاد الله وأنا فى طريقى إليك ، ولا أستطيع أن أصف لك فرحة الرجل . لقد قال لى وهو يبكى :

— الآن أثلجت فؤادى يا ابنتى . إنى أشعر أن ابراهيم ابنى يعود إلينا فى شخص محسن . وما دام قد حفظ وعده معك يا ابنتى وكتم سرك وتحمل فى سبيله ما تحمل ، فذلك يعنى أنه أصبح شيئاً جديداً فى هذه الحياة . شيئا لم يتبينه من قبل !

ونظر الشيخ إلى زوجته وقال يحدثها :

— ياأم محسن ألم أقل لك ذات يوم إن الغيرة أول الطموح ! لقد غار محسن من أخيه ابراهيم . إن الغيرة أول الطموح ، وبدأ يخطو لأعلى الطريق .. بدأ يخطو لأعلى الطريق .

وجعل الرجل يرددها مراراً والدموع فى عينيه ، وزوجته تنظر إليه ولا تسمع منه شيئا ولا تعى شيئا . .

وسألت وداد :

— وأين محسن الآن ؟

— علمت أنه ينام ليله ونهاره بجامع زغلول حيث استشهد أخوه ابراهيم ، وقد أنبأت أباه بذلك ، فوعدنى أن يرسل إليه من يعيده إلى داره .

وفرحت وداد ، ولم تكن قد فرحت منذ زمن بعيد .

وأوفد الشيخ (جاد الله) رسولا الى (محسن) بمسجد زغلول ولكن الرسول لم يعثر على أثر لمحسن ....

فقد تصادف أن غادر محسن المسجد فى ذلك اليوم لأول مرة منذ أن قام به . . وكان قد عزم أمره على شىء . . عزم أن يخطو لأعلى الطريق ..

الربوة العالية

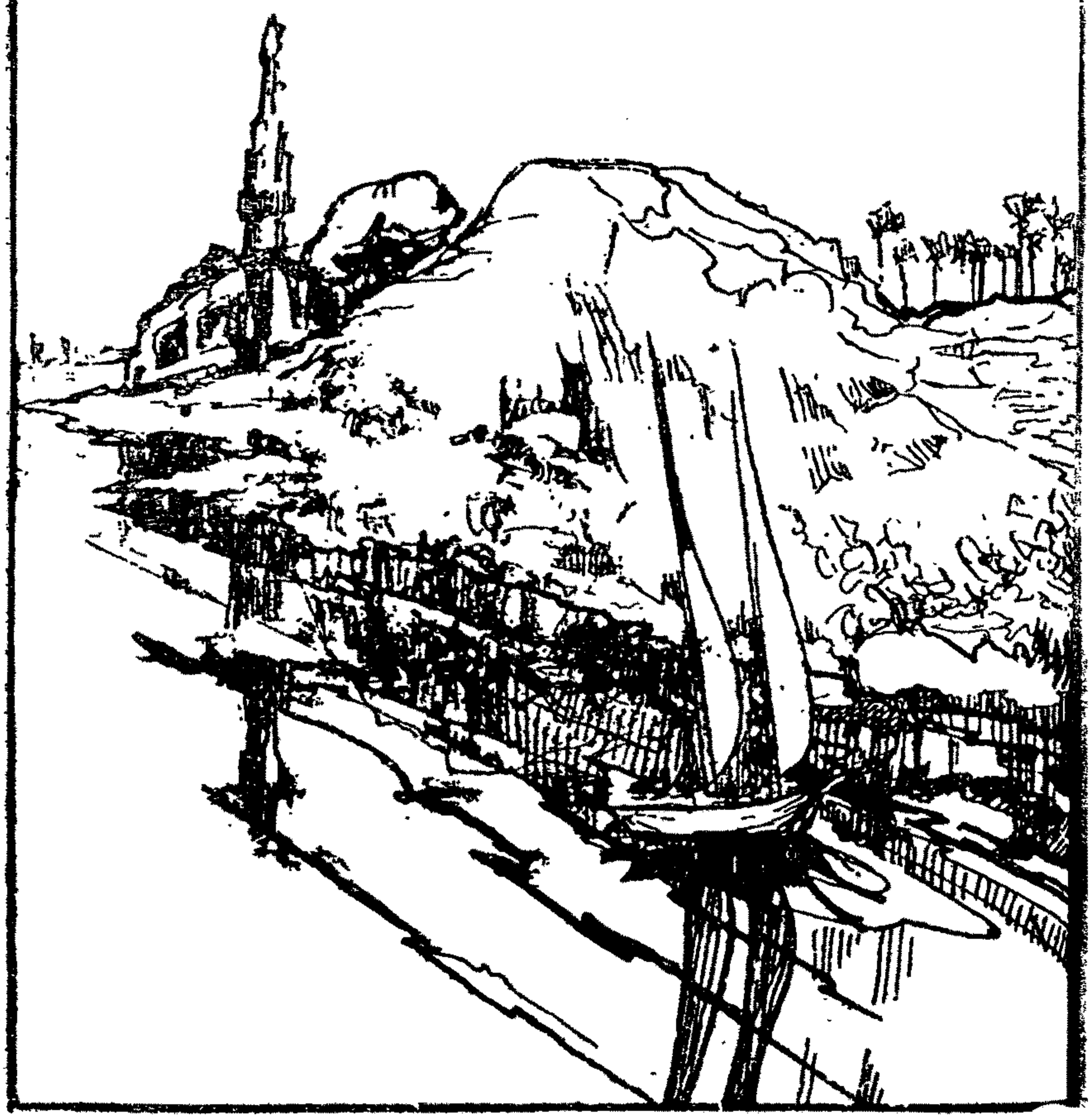

١٤

ظل الأعداء يحاصرون المدينة إثنى عشر يوما . أوقعوا خلالها خسائر كثيرة بالأرواح والممتلكات ، إلا أن (رشيد) لم تحن رأسها ولم تستسلم .

وقررت الثبات فى عناد وكبرياء مهما كلفها ذلك من أفدح الخطوب [1] ، وبدأ اليأس ينفذ الى قلب (ستيوارت) القائد الجديد .. وراح (فريزر) يحثه على اقتحام (رشيد) واحتلالها تواً . ولكن ظل (ستيوارت) يؤجل هذا الهجوم من يوم إلى يوم حتى مرت هذه الأيام الإثنا عشر ، وقصر كل همه خلالها على ضرب البلد الأمين بنيران المدفعية الثقيلة ، دون أن يدفع إليها برجاله فى اشتباك مباشر مع رجال حاميتها البواسل ، وكان يمنى نفسه أن ينجح (فريزر) فى الاتصال بالمماليك والعثور على خليفة للألفى . ولكن خاب كل مسعى لهم . فلسوء حظهم قرر المماليك رغم كراهيتهم (لمحمد على) ألا يتعاونوا مع الإنجليز [2] . لقد خشوا أن ينتقم الشعب المصرى منهم

---

(١) الخطوب جمع خطب ، وهو سبب الأمر . تقول ماخطبك : أى ما أمرك .

(٢) اتصل الانجليز بالمماليك القبليين لكى يعاونوهم فى غزو القطر .. كما اتصلوا بعثمان باشا حسن فى دمنهور ورفض الأخير التعاون معهم (الجبرتى) .

وأن يثور ضدّهم الرأى العام . وكان قد بلغ هذا الرأى العام أوجه منذ عامين . يوم أن عزل الوالى التركى وعين (محمد على) خليفة له . وكانت كل ساعة تمر تمضى ثقيلة كدهر على أهالى رشيد .. ولكنها كانت تمر أثقل على جنود الأعداء .. وقد بلغ (فريزر) أن (محمد على) رجع إلى نفسه وعدل عن الهرب إلى سورية ، وأن أهل القاهرة قد قويت عزائمهم عند ما وصلتهم رءوس القتلى وأسرى الإنجليز من رشيد ..

وكتب (فريزر) لاستيوارت يؤنبه على تأخير احتلال (رشيد) إذ لو تمكن (استيوارت) من احتلالها لوضع المصريين أمام الأمر الواقع ولنجحت الحملة فى أغراضها ، ولكن (استيوارت) لم يحتل (رشيد) ولم يكن ليجرؤ ، فبعث يبرر تقاعسه [1] إلى (فريزر) وحرر له الخطاب التالى :[2]

« إن ما أنبأتمونى به من قرب حضور المماليك جعلنى
« أتريث [3] فى الهجوم على رشيد .
« لقد ألحقنا بالمدينـــــة أضراراً كبيرة ، وبلغ ما أطلقناه من

---

(١) التقاعس = التخاذل ويأس الهمة .
(٢) هذا الخطاب منقول نصا من التاريخ العسكرى للحملة (وثائق الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ المسيو دوان وثيقة رقم ٤٦).
(٣) يتريث تريثاً . وهو البطا (من راث) .

« المدافع البعيدة المدى وحدها ٣٠٠ قنبلة .. على أنه
« يتبين لنا أن الأعداء لا يكترثون بالمصائب التى تنزل
« بهم ، إن قواتهم لا تزيد كما علمنا عن بضع مئات من
« الجنود ، وألف من الأهالى المسلحين ، ولكن نظراً لسعة
« خطوط دفاعهم وطبيعة مواقعهم لم أر من «الحكمة» أن أتعجل
« اقتحام المدينة ... إن نجاحنا معلق على نجدة المماليك . . وفى
« انتظار تلك النجدة يتبين لنا أهمية مواقعنا فى (الحماد) حيث نتوقع
« أن يهاجمنا الأعداء فيها .. »

وهكذا راح « استيوارت » يخلق المعاذير والحجج الواهية [1]
وكان يتحجج بخطوط المصريين وهم قليلوا العدد . . فى حين أنه
كان يحتل أفضل المواقع المتحكمة فى ربوة « أبى مندور » . . وكان
يلح فى طلب النجدة من المماليك ، وهو يملك آلاف المقاتلين ، والعدد
الكبير من المدافع . .

وكان الرجل « حكيما » حقاً (كما ذكر فى خطابه) فى أن يتريث
فى الهجوم بعد العقدة النفسية التى أصابت جنود الانجليز فى ٣١ مارس .

---

(١) الضغيفة . وهى حائط هيا أى ضعف وهم بالسقوط .

وكذلك شاء القدر أن يتريث فى هجومه للأبد . واكتفى « استيوارت » باطلاق المدافع على البلدة . . فقد كانت هذه المدافع هى الصمام الذى ينفث[١] منه غيظه . .

وأخذ صوت المدافع يقوى ويشتد كل يوم حتى أرق محسن وجعله يفيق من ذهوله وعلته . وظل محسن يسائل نفسه إلى متى سيظل هؤلاء الأوغاد يحاصرون البلدة ويلقون على رأسها بالحمم ؟ . . ما الذنب الذى اقترفه أهل « رشيد » حيال سكان الجزر البريطانية ليبعثوا إليهم هذا الدمار ؟ هل يضايقهم إلى هذا الحد أن تدافع البلدة عن نفسها ! !

وسأل نفسه من جديد ؛ لو أن هناك دولة فى العالم أقوى من انجلترا وأشد منها رغبة فى الاستعمار وذهبت تحتل الجزر البريطانية .. فهل كان الإنجليز يرحبون بها ؟ .

لماذا إذن ينكرون على الناس حقهم فى الدفاع وحبهم لوطنهم ! .. أى منطق هذا الذى يسود عقول المارقين[٢] ؟ .. لاشك أنه منطق الطمع والوهم .. الطمع و أن يسلب الإنسان رزق أخيه

---

(١) النفث شبيه بالنفخ ومنه النفاثات فى العقد أى السواحر .

(٢) المارق من الدين : الخارج عنه ، كما يمرق السهم . ولذا سميت الخوارج بالمارقة .

الإنسان .. والوهم فى أن يفرض البشر سيطرة تافهة على بشر مثلهم ...

وكانت مثل هذه الخواطر تروح وتجىء فى رأس محسن ... وتعلق بصره عند الغروب بوميض المدافع الآثمة .. وظل يحدق إليها طويلا .. ثم انتفض واقفاً وقد أسرّ فى نفسه أمراً . وترك المسجد ومشى حتى بلغ شاطىء النيل وعرج على الحانة .. فوجدها مغلقة .. فذهب إلى الباب الخلفى ليقابل صاحبها (يمى) العجوز.. كان هذا هو الصديق الوحيد الذى يمكن أن يرحب بمحسن فى هذا اليوم .

ولما رآه الرجل قال ، وقد بدت على وجهه الحسرة :

— متأسف « سى محسن » .. إنى امتنعت عن بيع الخمر منذ اثنى عشر يوماً . لقد أغلقت الحانة لأشارك البلد حزنها .

— هدىء خاطرك ياصديقى ؛ فلم أجىء لأطلب خمراً . وإنما جئت لأمر آخر .

— أمرك (سى محسن) .

— إنى أرغب فى أن تدبر لى قدراً كبيراً من الحبال .

ونظر الرجل فى دهشة إلى (محسن) وقال متعجباً :

— حبال ؟

— نعم حبال ! أرجوك إنى فى أشد الحاجة إليها . . وسأخبرك فيما بعد عن سبب احتياجى إليها ، دبر لى أمرها من أى طريق . فأنا لاأعرف اليوم من ألجأ اليه غيرك .

— لدى منها الكثير فى المخزن الخلفى ، وكانت تأتينى مع صناديق الخمر . انتظر لحظة .

وعاد الرجل وهو يحمل أمتاراً من الحبال .

فأخذها الأخير وشكره وهم بالانصراف .

وعندئذ نادى عليه العجوز وقال له :

— أنت رجل طيب (سى محسن) . تعال إذن واحتس معنا كأساً من النبيذ ولكن فى غير مقابل .

وفتح الغرفة الجانبية ، واندهش (محسن) عندما لمح بداخلها اثنين من زملائه الماجنين الذين أمضى معهم الليلة التى تأجل فيها زفافه بمناسبة مقدم الأعداء النحس ، وكانت أمامهما زجاجة مغلقة من النبيذ لم تفتح بعد .

وقال العجوز الأجنبى معتذراً :

ـ وحياتك أنت (سى محسن) هذه أول مرة نشرب فيها خمراً .

لقد دعوتهما لكى يتناولا كأسا واحدة ، ولكن فى غير مقابل . لقد أقسمت ألا أبيعها إلا بعد أن يرحل المعتدون عن أرض البلدة .

وفرح الرجلان بمقدمه ورحبا به . لقد افتقداه منذ آمد بعيد .

وقال أحدهما وكان مرحاً ويدعى (أبو حسين) :

ـ إننا لم نمس الزجاجة بعد . حظك دائماً أمام قدميك ، فمنذ الليلة المعهودة ونحن لم نجتمع لنشرب شيئاً ، وها نحن نجتمع اليوم ثانية على غير ميعاد . حقاً رب صدفة خير من ألف ميعاد كما يقولون .

وعندئذ بدرت [1] حركة غريبة من محسن ، فلقد هجم على زجاجة الخمر وأطاح بها بعيداً .. وأمر الرجلين أن يتبعاه .. فنهضا وخرجا معه كالمأخوذين .. واستعجب الرجل العجوز وقال صائحاً وقد ظن شيئاً :

ـ لماذا (ياسى محسن) ؟ أقسم بشرفى أنه أجود أنواع النبيذ يا (سى محسن) .

وتركه الرجال الثلاثة وانصرفوا .

وحمل كل واحد منهم لفائف من الحبائل ، وساروا بمحاذاة النيل واتجهوا جميعا نحو الجنوب. وتكلم (أبو حسين) فقال:

---

(١) صدرت فى حدة .

— إلى أين يا محسن ؟

— لماذا تسأل ؟

— أبداً ، نحن معك حتى إلى الجحيم ؛ فمنذ أمد طويل ونحن نتوق لقائك . ولكن أليس من حقنا أن نسأل ؟

فأجاب محسن :

ـ مادمت تحب أن تعرف ، فالأمر كذلك كما قلت ؛ نحن فى طريقنا إلى الجحيم .

وضحك الرجال طويلا، ولم يدر بخلد واحد منهم أنهم حقاً فى طريقهم إلى الجحيم ، عند الربوة العالية .

وظل محسن ساهماً طول الطريق ، فى الوقت الذى لم يكف فيه زميلاه عن الحديث ، وقال أبو حسين :

ـ إلى متى سيستمر هذا الحال ؟ لقد مات من البلدة عدد كثير . أين نجدة القاهرة ؟

فرد عليه زميله الآخر ويدعى (يوسف) :

ـ الظاهر أن القاهرة لن تسأل عنا ، لقد علمت أن الشيخ حسن كريت أرسل منذ يومين خطاباً إلى الشيخ (عمر مكرم) بالقاهرة ووقع

عليه جميع أشراف البلدة ، وكان خطاباً شديد اللهجة [١] .. لعل هـذا الخطاب يجعلهم يذكرون أن هناك بلداً اسمه (رشيد) محاصراً فى شمال القطر .

كان الليل هادئا مصمتا . لا يقطع هدوءه وظلمتـه بين الحين والحين ، إلا طلقة مدوية من مدافع الأعداء ، يبرق وميضها عاليا فى الأفق .

وسار الرجال الثلاثة نحو الساعة ، حتى أوشـكوا أن يبلغوا سفح الربوة التى تربض فوقها مدافع الآثمين ، وكلما اقتربوا منها كلما بلغهم صوت المدافع قوياً مرعداً [٢] . . ورائحة البـارود تتسرب إلى أنوفهم ، حتى أصبحوا على بعد خطوات قليلة من الربوة فسعوا نحوها زاحفين

ولاح أمامهم ضريح الشيخ (أبى مندور) على لسان صـغير من البر يمتد بين الماء والربوة ، فاختبأ الرجال عنده وبدأ أبو حسين يسأل محسناً :

ـ إنك لم تـكن تمزح إذن حين قلت إننا ذاهبون إلى الجحيم ، فهو الآن فوق رؤوسنا مباشرة !

---

(١) أرسل الشيخ حسن كريت هذا الخطاب فى ٢ صفر يؤنب فيه حكام القاهرة على تأخرهم فى إرسال المؤن والنجدة . «الجبرتى» .

(٢) من الرعدة والارتعاد . أى الفزع والاضطراب .

قالها الرجل وهو يتحسس رأسه ويشخص ببصره إلى أعلى الربوة.

وأدرك أبو حسين أنهم مقبلون على مهمة خطيرة فوضع يديه فوق الضريح وأخذ يقول خاصا :

ـ كرامتك يا أبا مندور .

وعندئذ حضرته أغنية شائعة عن كرامة الشيخ أبى مندور فجعل يهمس بكلماتها :

« تصد البحر بدماغك والبحر بين قدميك ..

لا الريح تغطى مقامك ولا النيل بيطغى عليك».

كان شائعا [1] فى البلدة أن هذا الولى له كرامة كبيرة عندالله ،فزعم أن هذا المكان معرض لفيضان النيل ولانهيار الرمال فوقه من الربوة ، فإن الماء ينحسر دائما عن الضريح ولا يصل إليه ، أما الرياح فإنها تغطى المكان كله بالرمال عدا الضريح .

وكان هذا ماتقصده الأغنية بقولها « لا الريح تغطى مقامك ، ولا النيل بيطغى عليك » .

وهمس يوسف ثالثهما قائلا :

ـ نعم . كرامتك يا أبا مندور !

ونظر محسن إليهما وقال :

ـ سنبدأ بعد قليل .

---

(١) الأغنية والاسطورة منقولتان عن أهالى رشيد.

سر المقنّع

١٥

شرع محسن يشرح للرجلين الخطة التى عزم أمره على تنفيذها الليلة فاستهل حديثه قائلا :

— لو نظرتما إلى أعلى لرأيتما أضخم مدافع الأعداء جاثما بجوار حافة الربوة . إنه المدفع الذى أصاب مسجد زغلول وهدم كثيرا من الدور الآمنة . ولقد عزمت أمرى على إسكاته للأبد .

— وحدك ؟

— كنت وحدى حتى التقيت بكما .

وأخذ يشرح لهما تفصيل الخطة . واستمع إليه الرجلان فى جدّ لأول مرة فى حياتهما . وكان محسن يتكلم كقائد ، أو كبطل ملهم !

وسأله أبو حسين مداعباً :

— أين وضع قائدنا هذه الخطة المحكمة !

فأجاب محسن مقتضبا :

— فى المسجد حيث قتل إبراهيم أخى .

ومن بعد هذه الإجابة التزم الجميع الجد الليلة كلها .

واستطرد محسن قائلا :

ـــ لقد ظللت أرقب هذا المدفع النهار وأطراف الليل . إنى حفظت عن ظهر قلب متى يصمت ومتى ينطلق . ولقد كانت آخر قذيفة له اليوم تلك التى سمعناها ونحن بالطريق ، وسوف يلزم الصمت من الآن حتى مطلع الفجر ، وبعد ساعات قليلة سوف يذهب رجاله للنوم ، ولن يبقى منهم إلا حارس أو حارسان وعندئذ تبدأ مهمتنا ، أما الآن فعلينا أن نعد هذا الحبل للعمل .

ثم أمسكوا الحبل بين أيديهم ، وصاروا يصنعون منه جزءاً واحداً متماسكا يزيد طوله عن ارتفاع الربوة العالية . وفى خلال ذلك العمل راح كل منهم يستغرق فى خيالات بعيدة . لقد تذكروا أيام صباهم الأولى .. كانت هذه الربوة مسرحا للهو المفضل ، يصعدونها فى لمح البصر ثم يقذفون بأجسامهم إلى صفحة النيل العميق . ويقدمون على هذا الأمر عشرات المرات فى النهار دون أن يملوا ، واليوم يعودون للربوة لشىء آخر غير اللهو . وحانت ساعة العمل ، وأخرج محسن من جيبه مديتين [1] حادتين كان قد أخذهما من الرجال الأعراب الذين قابلهم عند البحيرة ، وناول إحداهما لأبى حسين ، وشرعا يتسللان لأعلى الربوة فى خفة وصمت ، بينما بقى يوسف فى أسفلها عند حافة الماء ، وفى دقائق بلغ الرجلان القمة ، وهناك رقدا يرقبان عن كثب ، ولمحت عيونهما حارسين

---

(١) المدية : الشفرة أو السكين ، والجمع مديات ومدى .

متراخيين للأعداء .. لم يظن الإنجليز أن هناك من سيأتيهم ليدهمهم فى عقر مربضهم ! كان الحارسان يتحركان فى اتجاه مضاد فى خطوات ثقيلة منتظمة .

واتفق محسن وأبو حسين أن يباغتاهما [1] الواحد تلو الآخر .

والتقى الحارسان فى مكان متوسط ثم بدآ يفترقان وقد أعطى كل منهما ظهره للآخر ، وتحرك واحد منهما قادماً نحو حافة الربوة حيث يكمن له الفدائيان . وفى لمح البصر انشقت الأرض عنهما ، وهجما عليه وأجهزا عليه بالمدية ، وقد حبس محسن صوت الرجل فى فمه بيده وقبل أن ينتبه الحارس الآخر إلى حقيقة ما حدث هرعا نحوه وصرعاه جثة هامدة على الأرض ، أما باقى رجال المدفع فكانوا أربعة يستغرقون فى نوم عميق على مسافة ليست بعيـــدة . . ولم يشأ محسن أن يتورط معهم ، واكتفى بأن استل بندقية أحد الحارسين وأعطاها لأبى حسين فى يده وقال له :

— ارقبهم واحم ظهرى .

واتجه (محسن) إلى المدفع وعقد الحبل حول فوهته عقدة محكمة ، ثم ألقى بطرفه الثانى إلى أسفل الربوة حيث كان يقف « يوسف » ، وراح

---

(١) يفاجئاهما .

يدفع الأحجار وقطع الحديد التى كانت تثبته بالأرض بعيداً عنه ، ومرت الدقائق كأنها دهر .

ولما انتهى محسن من مهمته ، اتجه الى (أبى حسين) وأمسك منه البندقية وقال له :

— اهبط أنت أولا ، وانتظرنى عند يوسف .

وغاب أبو حسين عند حافة الربوة . وعند ماجاء دور محسن فى الهبوط لمح شيئا عجبا كاد يجعله يرتجف . فعند الطرف الآخر للربوة رأت عيناه أربع كرات من النار تتدحرج مسرعة فوق الأرض . وصرخ حراس الأعداء الذين فى الجانب البعيد ، وفى أقل من لمح البصر استقرت هـذه الكرات وسط صناديق البارود فانفجرت مدوية . ودفع انفجارها بمحسن فى الهواء فلم يحس بنفسه إلا وقد سقط من فوق الربوة على صفحة النيل ، واشتعلت الربوة وصارت جحيما .. وعندما غاص (محسن) فى الماء تنبه إلى نفسه وأخذ يسبح نحو الشاطىء ، وهناك وجد زميليه ينتظرانه فى وجوم ، وكان يوسف مازال ممسكا بطرف الحبل فى يده .

سأله أبو حسين : ماذا حدث ؟

فحكى له محسن مندهشا أمر كرات النار ، وكيف نسفت مخازن البارود للأعداء .

فقال أبو حسين :

— عجبا ! يظهر أن هناك من يزور الأعداء مثلنا فى الطرف الغربى للربوة . وتمتم الجميع متسائلين : من هو باترى ؟

واستجمع محسن انتباهه وقال :

— على أية حال علينا أن نتم مهمتنا ، فقد كان مكمن الانفجار بعيداً عن المدفع ، ولا أظنه قد أصابه بشىء .

وأمسك الرجال الثلاثة بطرف الحبل المدلى ، وجعلوا يحدبونه فى عنف .

كان المدفع ثقيلا ، وأبى أن يتزحزح فى بادىء الأمر ، ولكن مع عزيمة الرجال وإصرارهم بدأ الحبل ينجذب معهم قليلا قليلا . حتى بدأ شبح المدفع يبرز من أعلى الربوة ، وكان أبو حسين أول من رآه فهتف هامسا :

— لقد وصل صاحبنا ..

واستمروا فى الجذب .. واستمر المدفع فى البروز . . حتى شعروا أنه أصبح على وشك السقوط . فقال محسن :

— لنكن على أتم استعداد لأن نجرى صوب الشمال أول ما يميل ثقل المدفع للأمام وبذلك لا يسقط فوقنا ..

ولم ينته محسن من عبارته حتى حدث أمر غير متوقع .. فقد انطلق صوت الرصاص مدويا من أعلى الربوة فى اتجاه الرجال ..

ولكن لم تشهم هذه المفاجأة عن إصرارهم .

وفى لمح البصر هوى المدفع من أعلى الربوة إلى صفحة النهر الخالد ..

وسرعان ما استقر فى القاع العميق .. واستقرت معه جثة رجل من رجال الأعداء كان تشبث بالمدفع فى اللحظة الأخيرة يحاول أن يمنع سقوطه !

واندفع الرجال الثلاثة على الشريط الضيق عائدين أدراجهم إلى رشيد ثم قفزوا فى الماء ليتموا رحلتهم مختفين تحت صفحته ..

وابتلع الماء الرجال الثلاثة وطلقات الرصاص تتبعهم طائشة من أعلى الربوة كان جنود الأعداء هم الذين يصوبون هذه الطلقات .. فقد حدث أن صحوا على صوت الانفجار وقد ملكهم الذعر . ثم لمح واحد منهم المدفع الثقيل يتأرجح عند حافة الهاوية .. فجرى نحوه وتشبث به .. ولكن المدفع هوى وحمله معه إلى الأعماق .. وراح باقى زملائه يصوبون نيرانهم إلى سفح الربوة ونحو صفحة الماء ..

واستمر الرجال الثلاثة يسبحون فى الماء فى خفة ومهارة .. فقد

خبروا السباحة فى هذا الجزء من النيل فى أيام طفولتهم .. ولكن أمراً مؤسفاً حاق بمحسن ! فقد أحس فجأة بألم ممض فى كتفه أوقف حركة ذراعه اليسرى .. وسرعان ما أحس بقواه تخور .. لقد أصابته رصاصة طائشة فى كتفه .. ولم يقو حتى على الصياح .. بينما استمر زميلاه فى السباحة .. ولم يدر بخلدهما[1] أنه قد عجز عن متابعة الرحلة من ورائهما ..

وأغمض محسن عينيه .. وفقد السيطرة على جسمه وشعر بأنه يغوص إلى الأعماق ..

ولم يدر محسن كم لبث على هذه الحال .. ولكن لما فتح عينيه لحظ أن ضوء الفجر الباهت بدأ يبدد ظلمة الليل .. ولما عاد إلى صوابه وجد نفسه ممدداً فى كوخ صغير وتحت رأسه وسادة من القش .. وعندما أدار رأسه ليتفحص ما حوله استقرت عيناه على شبح رجل مقشح بالسواد من أعلى هامته حتى أخمص قدميه !! وكادت تفلت من بين شفتيه صرخة مدوية ؛ ولكنها انحبست فى حلقه .. فقد رأى « الرجل المقنع » وهو يجثو[2] فوق صدره يضمد بيده الجرح الذى فى كتفه.. وارتاح «محسن».. وعندئذ مال نحوه الرجل المقنع يحدثه فى صوت هادىء آمن :

---

(١) الخلد : البال أو القلب .

(٢) يركع .

— لا تخف .. فأنا صديق ..

واطمأن محسن .. وتذكر أنه رأى الرجل رأى العين منذ أسبوعين عند حافة البحيرة فحرك شفتيه متحدثا :

— أين نحن ؟

نحن فى مأمن من جنود العدو .. إننا على الشاطىء الشرقى للنهر ..

— ولكن كيف ؟

— اصمت وسأحدثك بكل شىء .. فقد كنا نعبر النيل فى طريقنا إلى هذا الشاطىء عندما لمحك أحد رجالى تغوص فى الماء .. فقفز إلى النهر وحملك إلى القارب ..

وصمت « محسن » واستطرد المقنع حديثه :

— لقد عرفك رجالى . وقالوا لى أنهم التقوا بك يوما . أليس كذلك ؟

— بلى .

ونظر الرجل المقنع بإحدى عينيه نحو محسن طويلا وقال له :

— إنى معجب بشجاعتك . لقد شهدنا كل المغامرة التى قمتم بها الليلة أنت وزميلاك . . لقد كنت أختفى قريباً منكم أرقب رجالى وهم

ينسفون مخازن الذخيرة ورأينا المدفع وهو يسقط .. ولكن حدثنى عن أمرك .. من أنت يا فتى « رشيد » ؟

— إنى أدعى محسن جاد الله .

وصمت المقنع ثم تحدث بصوت متهدج لحظ فيه محسن الاضطراب..

— أنت شقيق إبراهيم جاد الله ؟

— نعم .

— لا أعجب إذن لبطولتك .. فقد كان أخوك إبراهيم بطلا مثلك .

واهتزت خلجات محسن لهذه العبارة ودمعت عيناه ..

يا إلهى .. إنه بطل .. بطل .. ومن الذى يصفه بالبطولة ، الرجل المقنع ذو الشجاعة الخارقة ..

وشعر محسن بالفرحة تغمر كيانه .. كان يتمنى لو شهده أهل « رشيد » كلهم ، وسمعوا هذه الشهادة تنطق بها شفاه المقنع ..

وأوشك الرجل على الانتهاء من تضميد جراح (محسن) وعندئذ قال « المقنع » :

— سوف ينقلك أحد رجالى إلى الشاطىء الآخر بعد قليل لكى تستريح فى بلدتك .. أما أنا فسأنصرف الآن . وسلاماً إلى أهل بلدتكم جميعا ..

كان المقنع يتحدث فى صوت رقيق . وعجب « محسن » من أمر الرجل .. إنه يعرفه ويعرف أخاه إبراهيم .. فمن يكون هذا الإنسان الغريب السر ؟ .. وهم أن يسأله عن حقيقة شخصه .. ولكن حدثت عندئذ أغرب مفاجأة لم يتوقعها محسن .

فعندما انتهى المقنع من تضميد جراحه همّ بالنهوض وكان القناع بدأ ينحسر[1] وحده رويداً رويداً عن جبينه .. ولم ينتبه الرجل إلى أمره وقد انشغل عنه بتضميد الجرح . . فلما وقف ناهضاً سقط القناع فجأة عن وجهه .. وعلى ضوء الفجر الذى بدأ يغمر المكان رأى محسن وجه الرجل ، فبدرت منه صرخة قوية وأسرع يغطى وجهه بيديه حتى يغض عينيه عن المنظر الرهيب الذى شهده .

فقد كان المقنع مشوّه الوجه تشويهاً أثيما مرعباً . . فلم تكن له إلا عين واحدة واسعة .. وقد جدع[2] أنفه .. وبدا نصف وجهه محترقاً أسود . وقد انتزعت منه العين الأخرى انتزاعا .

وانتفض الرجل المقنع وبدا عليه الفزع والاضطراب .. فأعاد القناع إلى رأسه سريعاً ، ثم أدار ظهره ، وأطلق ساقيه للريح ، حتى غاب بعيداً وراء التلال .

---

(١) ينكشف .
(٢) يجدع جدعاً : أى قطع الأنف أو الأذن أو اليد أو الشفة .

قرية الحمّاد

١٦

حقاً إن الخطوب لا تأتى فرادى ..

ففى الليلة التى جلس فيها « ستيوارت » يندب الكارثة التى حاقت[1] بمدفعيته فى « أبى مندور » أقبل عليه رسول من قبل الكولونيل « ماكلود » قائد قوة الحماد ينبئه بما هو أمر وأفدح .

فقد دفعت « القاهرة » أخيراً بقوات ضخمة[2] من المتطوعين والجنود والفرسان المصريين على كل من شاطئى النيل الشرقى والغربى لمهاجمة الإنجليز فى « الحماد » وفك حصار رشيد ، وشعر « ستيوارت » بالمحن توشك أن تتجمع كلها عند رأسه ، وكان شعور الرجل صادقاً .

فسرعان ما توالت عليه أنباء السوء من بعد ذلك . لقد سبق أن أرسل الكولونيل « ماكلود » إلى « الحماد » ليحتل « عنق الزجاجة » بين النيل وبحيرة (إدكو) ليحكم الحصار على (رشيد) ويفقدها الأمل فى النصر .

---

(١) أحاطت ونزلت .

(٢) بلغت هذه القوة ٤٠٠٠ مقاتل من المشاة و ١٥٠٠ من الفرسان . (التاريخ العسكرى للحملة) .

ولكن النحس الذى لازم الحملة المعتدية منذ اليوم الأول الذى وطئت [1] فيه أرض الاسكندرية ، أبى أن يفارقها فى أى مكان .

فقد استطاعت الفرسان المصرية أن تتسلل خلف المواقع الإنجليزية وتقطع خط مواصلاتها بين « الحماد » و رشيد ، وبذلك حوصرت القوات التى جاءت لتحاصر ، ووقع الصائد فى شباك الصيد [2] .

ويئس (كلود) من الموقف فرأى أن يفر وينسحب إلى قواعده .

ولكن هيهات أن يتم له ذلك .

كان جنود المصريين ومتطوعوهم على قدر كبير من الروح المعنوية ؛ لقد امتلأ قلبهم عقيدة وإيماناً بطرد المستعمر الغاصب ، وتحرير وطنهم من كل سيطرة أجنبية .. وبدأت المعركة ، وكانت أشبه باستعراض منها بالقتال .

لقد اندفع الجنود والمتطوعون وهم يكبّرون ويصيحون ، والطبول تدق من خلفهم ، وألقوا بأنفسهم فى النيران ولم يبالوا بها ، وهجموا على المعتدين واختلطوا بهم وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم ! ولم تمض لحظات حتى قضوا على الجناح الأيمن للعدو ، ولقى

---

(١) وضعت قدمها.

(٢) الصيد هنا بمعنى المصيد ، أى مايصطاد.

(ماكلود) حتفه بالمعركة . أما الجناح الأيسر فقد ألقى سلاحه وطلب التسليم. وهكذا انتهت معركة الحماد وقد أبيدت القوات الانجليزية على بكرة أبيها[١] .. بين نصف قتل ونصف وقع أسيراً[٢] .

وبلغ خبر الكارثة إلى الجنرال (ستيوارت) ، وكان لا يأنس فى نفسه القدرة على اقتحام البلدة الأبية (رشيد) ، وبخاصة بعد أن فقد مدافعه وذخيرته فى غارة الأمس التى شنها عليه الأبطال المجهولون . فأمر جنوده بالانسحاب .. ولما شهد أهل (رشيد) فرار الأعداء انطلقوا مع المتطوعين يطاردون الجيش الغادر ، ولم يسلم الهاربون من غارات الرجل المقنع ، فخطف رجاله منهم عدداً كثيراً من الأسرى .

وعاد المهزومون يجرون أذيال الخيبة ، على نفس الطريق الذى عادت عليه من قبل جنود (ويكوب) مقهورين .

ولما بلغت قوات الإنجليز (أبا قير) انسحبت منها بحراً إلى قاعدتها فى الإسكندرية . وتوارت خجلة خلف أسوارها ، ومنذ ذلك العهد لم يجرؤ جندى إنجليزى واحد أن يخطو قدما واحدة خارج هذه الأسوار .

---

(١) أى أبيدوا كلهم .

(٢) بلغت قوات الحماد حوالى ٨٠٠ جندى، وبلغ القتلى منهم ٤١٦ والأسرى ٤٠٠ (التاريخ العسكرى للحملة) .

وبعث «فريزر» يطلب «ستيوارت» لمقابلته . فوقف الأخير أمامه مطرقاً كاسف البال . وظل واجماً ؛ إذ كانت المحنة أقوى من أن ينطق بها لسان رجل .

وامتلأت نفس « فريزر » بالحسرة .. لقد أمضى أربعين يوما بالاسكندرية منـــذ بدء الحملة ، توالت عليـه خلالها اللطمات قوية مذهـلة . وجعل يعجب كيف تستطيع فئة [1] قليلة أن تهزم فئـة كبيرة . .

وراح « ستيوارت » يحكى له ما حدث لجنود الحماد ، وكيف أنه لم يعد منهم جندى واحد . ولما جاء ذكر دور رشيد أخذ يتحدث من جديد عن « حكمته » التى أنقذت الجندالـكثير منها . وكان (ستيوارت) لا ينفك يتحدث عن «الحـكمة» كلما عجز عن قهر المصريين . حتى عندما سأله (فريزر) عن المدافع التى فقدها ، كذب وقال إنه هو الذى دمرها بحكمته حتى لا تقع فى أيدى العدو . كانت تقتضى « الحـكمة » أن ينـكر الحقيقة عن (فريزر) أيضا .

وفى الوقت الذى كان يعانى فيه « فريزر » ألم اللطمة الثانية كانت (رشيد) تحتفل بنصرها الثانى .

---

(١) الفئة : الطائفة .

لقد خمد صوت المدافع الآثمة إلى الأبد ، ورحل الغاصبون إلى غير رجعة . وراح الأهلون يحملون أنقاض الدور المتهدمة ليعيدوا بناءها من جديد .

لقد أراد العدو لهم الهزيمة ، وأراد الله لهم النصر ، فمن ذا الذى يخذلهم [1] من بعده !

وأخذت الحياة فى رشيد تعود سيرتها الأولى .

وأخذت المدينة تتندر فى كل مكان ببطولة (محسن جاد الله) وزميليه . فقد عاد اليها أبو حسين ويوسف يحكيان مغامرة ليلة (أبى مندور). وتهامس الناس بالشك فى بادىء الأمر . حتى عثر رجال الحامية على حبل طويل عند سفح الربوة وقد غاص طرفه فى الماء . فلما خلع واحد منهم ثيابه ونزل إلى الماء تحسس المدفع بيديه جاثماً عند قاع النهر.

لقد أصبح الناس يتحدثون إذن عن شجاعة « محسن جاد الله » .. شجاعته أمام مدافع الأعداء الثقيلة .. وسمعت البلدة كلها بهذه القصة .. عدا امرأة واحدة .. هى أمه .. فلم تكن تستطيع أن تسمع شيئاً . ولو أنها سمعت بها لتعجبت فى نفسها ، وقد تذكرت حديث محسن ذات يوم غير بعيد عن هذه المدافع الثقيلة .. وتلفتت رشيد كلها تبحث

---

(١) يخذلهم : يترك نصرهم وعونهم .

عن محسن جاد الله ونقبت عنه فى كل مكان فلم تهتد إليه .. وعاد (أبو حسين) و (يوسف) ليبحثا عنه فى (أبى مندور) ولكن ذهبت كل محاولة لهما مع الرياح .

واستولى الحزن قاسياً لأول مرة على الشيخ المؤمن (جاد الله) .

وكان يجلس صامتاً واجماً فى الدار طول يومه .. وكلما همّ أن يحدث زوجه ليطرد عن نفسه خواطر السوء ، تذكر محنة سمعها ، فيرتد إلى نفسه حزينا محسوراً .. فلا يجد ملاذاً يولى وجهه إليه إلا السماء .. يرى الأمل عند نورها ..

ويبدو أن السماء لم تخيب رجاء الشيخ طويلا ! ..

فقد عثر العجوز (ينى) على محسن فى صباح اليوم التالى لرحيل الأعداء .. فعندما عاد الرجل ليفتح حانته من جديد مع الصباح وقعت عيناه على قارب تعبث به المياه قريبا من الشاطىء .. وكان بداخله رجل نائم .. وكاد لا يهتم بالقارب ويعطيه ظهره . . لولا أنه لحظ بوجه الرجل النائم شبها قريبا لمحسن جاد الله .. فعاد واقترب من الماء ، وتفرس فيه طويلا .. ودهش الرجل ؛ فقد كان هو محسناً بعينه .. وكان غائباً عن الوعى والضمادات تعلو كتفه وذراعه ..

واستعان العجوز بواحد من المارة وجذبا القارب . وحمل محسناً إلى

بيته . ولما أفاق محسن ضحك العجوز فى وجهه وقال :

— ما كنت أحسب أن حبلا من حبالى سيصطاد ذات يوم مدفعاً للانجليز ! ..

وطار الخبر إلى طاهر بك الحاكم ، فذهب بنفسه ليراه فى بيت العجوز (ينى) ! وعند عودته اصطحب محسناً معه إلى بيته .. وكان يعلم أن محسناً لن يفكر حالياً فى العودة إلى بيت أبيه بعد ما جرى بينهما ليلة المعركة الأولى فى ٣١ مارس . .

واستولى النوم من جديد على محسن فى بيت الحاكم . . ثم استيقظ بعد ساعة ليرى أمامه جمعاً يضم أباه ، و (عاصم بك) والد (وداد) .

كانت وجوه القوم جميعاً تبتسم نحوه .. وقام أبوه فاحتضنه فى رفق ، وأخذ يقبله فى جبينه .. وانهمرت الدموع غزيرة من عينى الإبن وأبيه .. كان اللقاء مفعماً بشتى الأحاسيس ! كان فيه حب .. وفرح . وغفران . . ثم نهض عاصم بك وهمس فى أذن محسن ببضع كلمات ، فابتسم محسن على أثرها .. لقد ذكر له أن ابنته تنتظر مقدمه ..

وأقام محسن فى بيت طاهر بك ليلتين حتى يسترد عافيته .. وعندما همّ محسن بمغادرة بيت الحاكم ، طلبت « جميلة الرشيدى » مقابلته، وراحت تشكره على معروفه يوم أن تكفل بإخفاء « درة » ..

وأبدت أسفها الكبير لما لحقه من آلام من جراء هذا المعروف ..

وعندئذ قال لها محسن :

— لا تتأسفى على شىء .. وإنما أنا الذى أدين لك بالشكر ..

وعجبت جميلة وقالت :

— على ماذا ؟

— أنت لا تدرين ما فعلت بى ! . لقد شعرت يوم أن وضعتنى محل ثقتك وسرك أنى رجل غير الرجل .. لقد كنت فى حاجة إلى من يثق بى لكى أثق أنا بنفسى .. وتم ذلك على يديك ..

وخرج محسن من بيت الحاكم يحس فى نفسه طمأنينة وراحة لم يعهدها من قبل ..

وعندما اقترب من بيت أبيه ، تذكر أخاه إبراهيم فانحدرت دمعتان كبيرتان على وجنتيه ..

كان يتمنى لو أن إبراهيم على قيد الحياة .. كان سيقدره ويعجب بمغامرته التى تحكى عنها كل رشيد ..

ولما دلف إلى البيت جرى مهرولا[1] نحو أمه ..

---

(١) المهرولة ضرب من العدو ، وهو بين المشى والعدو .

كانت لا تفارق الغرفة التى وقعت فيها عيناها لآخر مرة على ولديها قبل ليلة المعركة الأولى ! .

وما أن رأته حتى نهضت واقفة تضمه إلى صدرها فى قوة وعطف والدموع تتساقط من عينيها ..

وبدأ محسن يحدثها قائلا :

— أماه .. أستحلفك بالله ألا تبكى يا أماه .

ولكنه فوجىء بأن أمه لا تسمع من حديثه شيئاً ..

ودخل ولده فى هذه اللحظة وجذب محسناً من يده .. وأسر فى أذنه أمراً .. وعرف محسن ما حل بأمه من جراء المحن التى نزلت ببيتهم منذ مقدم الآثمين .. وقال له أبوه :

— لاتحزن يابنى .. إنه قضاء الله، ولو اطلعنا على الغيب لاخترنا أمره ..

وهمهم محسن :

— تباً[1] للآثمين .. ليتنى فعلت بهم أكثر مما استطعت ..

فأجاب أبوه :

— إنك قمت يا بنى بما قدره الله لك .. ولقد انتقمت من مدافعهم .. انتقمت من المدفع الذى أتلف مسجد زغلول، وأصاب أمك بالصمم والبكم ..

واتجه محسن بوجهه إلى السماء .. وابتهل فى إيمان عميق :

— ربى .. أعد لها سمعها ونطقها فأنت على كل شىء قدير ..

---

(١) (من التباب) ، أى الخسران والهلاك لهم .

الجلاء

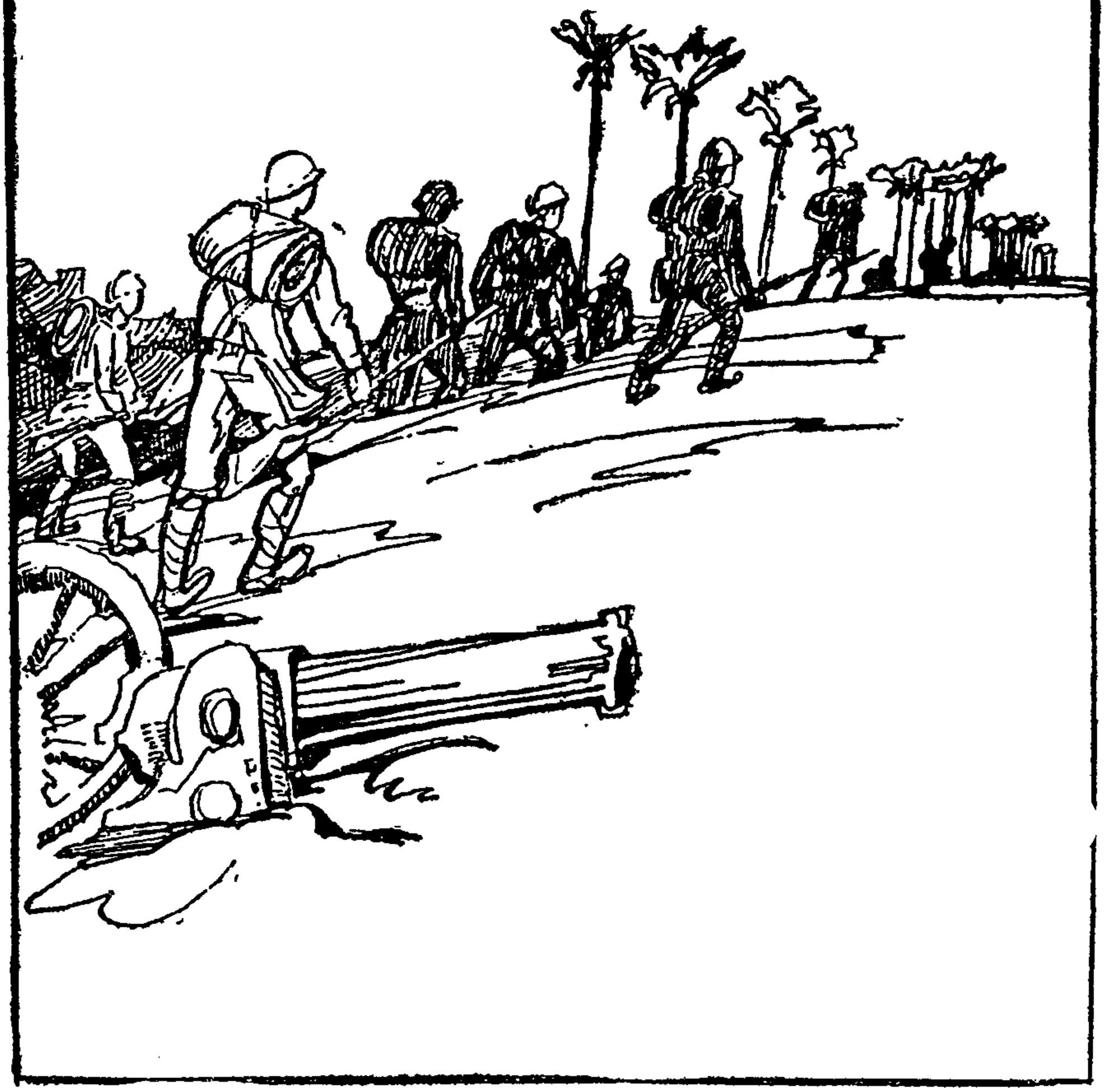

١٧

ومضت الأيام ، وجاء الصيف ، ثم رحل أوكاد .

وجلس الشيخ (جاد الله) فى الصباح أمام ردهة الدار يتلقى أشعة الشمس الصحوة فوق جسده النحيل . . كان اليوم من أيام سبتمبر الرقيقة .

وقد مضى على فرار الإنجليز من «رشيد» أكثر من خمسة شهور .

وجاء رسول من حاكم البلدة يهمس فى أذن الشيخ بنبأ جعله يقفز من مقعده ويجرى مرحاً داخل الدار ليذيع الأمر مهللا على كل من فيه .

لقد أبلغه الرسول أن غداً ١٩ سبتمبر سوف يجلو الانجليز عن الاسكندرية [1] ويرحلون نادمين إلى جزرهم النائية .

وعمت الفرحة (رشيد) بأسرها .

وأمسك الشيخ بابنه محسن يعانقه ويقبله ، وتساقطت دموع الفرح من عين أم محسن ، وقد أدركت النبأ بقلبها .

---

(١) الرافعى . ومن غريب التواريخ أن الانجليز خرجوا فى سبتمبر ١٨٠٧ ثم عادوا فى سبتمبر كذلك ١٨٨٢ ، وكانوا خرجوا فى مارس ١٨٠٢ ثم عادوا فى مارس كذلك ١٨٠٧ .

ودق الباب فى هذه اللحظة .

فقد جاء أبو حسين ويوسف لزيارة محسن مهنئين بالنصر . وتحدثوا طويلا ، وعندما همّ الرجلان بالخروج ابتسم (أبو حسين) وراح يغنى وهو يضحك :

« لا الريح يغطى مقامك ولا النيل بيطغى عليك » .

واستغرق الجميع فى الضحك ، ثم انصرف الرجلان .

وجلس محسن يعود بذكراه إلى مغامرة الربوة . حقاً لقد حلت بهم ليلتها (كرامة) الشيخ أبى مندور . لقد أوشك محسن على موت محقق لولا أن التقى به الرجل المقنع مصادفة فى عرض الماء .

وهنا تذكر محسن شيئا كان قد نسيه فى غمرة الأحداث .. لقد حدثه الرجل المقنع يومها عن أخيه ابراهيم . فمن أين عرف المقنع أن (ابراهيم جاد الله) هو أخوه !

ودخل أبوه فى هذه اللحظة فقال له (محسن) :

— لقد تذكرت شيئا يحيرنى يا أبى !

وراح محسن يقص على أبيه أمر الرجل المقنع وما حدثه به عن أخيه إبراهيم .

وقطب الشيخ جبينه وقال :

— هل تذكر ذلك حقا يا بنى ؟

— نعم يا أبى ، وكأنه حدث بالامس.

— إذن أعد علىّ وصف الرجل .

وبينما كان محسن مستغرقا فى الوصف ، نهض الشيخ فجأة واقفاً وصاح :

— كفى ! كفى ! إنه هو . لقد حدثنى عنه كذلك أخوك إبراهيم عقب عودته من واقعة دمنهور ، فلقد التقى به هناك وجاءنى بعدها يحدثنى عنه حزينا واجما ، وكان حديثه مقتضبا ولكنى أشعر أنه هو .. هو بعينه .

— من هو يا أبى الذى تقصده ؟

وصمت الشيخ ثم قال فى صوت متهدج :

— (جابر الرشيدى) ، والد (جميلة) !

وعلت الدهشة وجه محسن ، ثم تمتم قائلا :

— هذا يعنى أن (جميلة) كانت صادقة فيما حدثتنا به عن أمر الأذان ليلة المعركة وزيارة أبيها لها فى القبو .

— أعتقد أن هذا حق يابنى . فقد فهمت من المرحوم أخيك أن

الرجل عزم أمره على أن يمضى حياته الباقية فى الصحراء يحارب المعتدين الآثمين كافة ، فلقد جاء إلى دمنهور ليحارب جنود الألفى ، بعد أن اشترك فى الحرب ضد الفرنسيين ، وبعد أن اشترك فى ثورة القاهرة ضد العثمانيين فى عام ١٨٠٥[1]

— نعم . لقد سمعت مثل هذا الحديث من رجال (المقنع) الذين التقيت بهم فى الصحراء . لقد امتلأ قلبه حقداً على الآثمين بعد أن قتلوا زوجه وأطفاله ، وشردوا ابنته ، وشوهوا وجهه .

— حقاً يا بنى ولذلك فإنى أعتقد أن (جابر الرشيدى) هو الرجل المقنع الذى رأيته ، ولقد جاء إلى رشيد خفية ليفتك بالمعتدين ، ولكن لماذا يابنى لا يعود الرجل إلى ابنته وأهله برشيد ؟

فأجاب محسن وهو يفكر :

— من يدرى . لعل كرامته تأبى عليه أن يحيا بين أهل البلدة بوجهه المشوه . كما قد لا يرغب فى ان تصدم ابنته بمنظره

— هذا جائز يابنى .

---

(١) « الرافعى » ثورة القاهرة عام ١٨٠٥ والتى عزل فيها المصريون الوالى التركى ونصبوا بدلا منه (محمد على) بعد أن اشتبكوا مع الجنود العثمانيين فى مذابح كثيرة ، واشتهرت هذه الثورة بدعاء المصريين :

يارب يا متجلى إهلك العثمانلى .

وذهب الشيخ (جاد الله) وابنه إلى بيت الحاكم وقد اتفقا أن يقصا عليه الأمر .

وعند ما سمع الحاكم القصة ، استدعى جميلة كى تسمع بنفسها حديث الرجلين .

وعرفت (جميلة) بالأمر . وبكت طويلا . ثم رفعت رأسها وقالت :

— أريد أبى . أريده على أى صورة ، وأى وجه ، إنه أبى !

* * *

وتصادف فى هذا اليوم أن الحاكم قد أمر بإرسال ثلة من جنود الحامية لتشترك فى احتفال الاسكندرية بجلاء الأعداء ، وكان قد كان إبراهيم طاهر ابنه أن يرأس هذه الثلة . فأرسل يستدعيه ليكلفه بأمر جديد .

وحضر إبراهيم فحدثه أبوه قائلا :

— أرى أن تصحب معك محسناً جاد الله ، وعليكم أن تبحثوا فى الصحراء عن الرجل المقنع .

وعند ما همّ الجميع بالخروج من أمام الحاكم التفتت إليه « جميلة » قائلة :

— إسمح لى أن أذهب معهم. فقد يرفض أبى أن يعود معهم . ولكنى قد أجعله يعدل عن رأيه .

وقبل الحاكم .

وفى اليوم التالى خرجت ثلة من الفرسان ، واتبعت الطريق الذى فر عليه رجال الأعداء منذ شهور يلحق بهم المقنع .

وفى الطريق همس إبراهيم فى أذن جميلة ، وقد ثار حبها فى قلبه من جديد :

— هل تعدينى بالزواج يا جميلة . بعد أن نجد أباك فى هذه المرة ؟ .

وابتسمت الفتاة وأحنت رأسها وقالت :

— أعدك .

* * *

وفى فجر اليوم الباسم ١٩ سبتمبر ١٨٠٧ شهدت الاسكندرية طابوراً طويلا من أسرى الأعداء يتجه نحو السفن المكتظة الجاثمة عند الشاطىء ..

وعاد « فريزر » إلى غرفته بالسفينة منكس الرأس .. وما أن

احتوته الغرفة حتى تذكر الليلة الأولى التى قدموا فيها إلى الإسكندرية . وانتابه الحزن ، فقد مات كل الرجال الذين جمعتهم تلك الليلة ، عدا الأميرال (لوس) . وحتى هذ الاخير وافته منيته بعد أن وصل (فريزر) إلى السفينة بساعتين . كانت الحمى الخبيثة قد أصابته منذ ثلاث ليال . فلما مات تذكر (فريزر) حديث الرجل وأمنيته أن يدفن فى إنجلترا . فأمر أن يحتفظ بجثته لكى تحمل إلى وطنه . ولم يجد طبيب المركب قدراً يكفى من الكحول ، فاضطر أن يضع جثة الرجل فى دن من الخمر حتى لا تنتن.

وبذلك تحققت الدعابة التى تهكم بها فريزر عن (لوس) فى أول ليلة مشئومة من ليالى الحملة .

وراح (فريزر) يتذكر ما دار بتلك الليلة وهو يرمق بعينيه المقاعد الخاوية من حوله ، وقال فى نفسه :

— يا إلهى هل كانت هناك روح هائمة من أرواح الفراعنة سمعتنا فى ذلك اليوم فأرسلت علينا اللعنة ؟

واهتزت المركب فى هذه اللحظة إيذاناً بالرحيل .. فسقطت صورة الأسد البريطانى من جديد فوق الجنرال . يبدو أن اللعنة تأبى إلا أن تودعه كما استقبلته ..

وعندما غادرت السفن الشاطىء أطلقت أبراج الاسكندرية مدافعها ابتهاجا بالنصر .. فقد حمل (فريزر) عصاه على كاهله ورحل ..

. . .

وفى نفس الساعة أطلقت (رشيد) مدافع الحامية التى استولت عليها ذات يوم من المعتدين الراحلين ..

وانبعثت الزغاريد والأغانى ..

النيـــل دا حياتنـــا محـــروس برشيـــد
ودافعنـــا عنـــه ودفاعنـــا مجيـــد
وحمتـــه أرواحنـــا من شـــر الغاشـــم
ولا قـــرب منـــه غاصـــب ولا ظـــالم
دا النيـــل دا حياتنـــا

وتوافد المهنئون على بيت الحاكم . وعندما كان الشيخ (جاد الله) يجلس بينهم أقبل عليه رسول من بيته ، يسر فى أذنه أمراً ..

وبدا الإيمان والبشر على وجه الرجل .. وشكر الله فى نفسه ..

فعندما انطلقت مدافع البلدة مدوية بالنصر ، انتفضت أم محسن جاد الله فى فراشها ، وهى تصيح :

— إنى أسمعها .. إنى أسمعها ..

ثم تساقطت دموع الفرح من عينيها .

لقد عاد إليها سمعها ونطقها .

سبيل الحرية

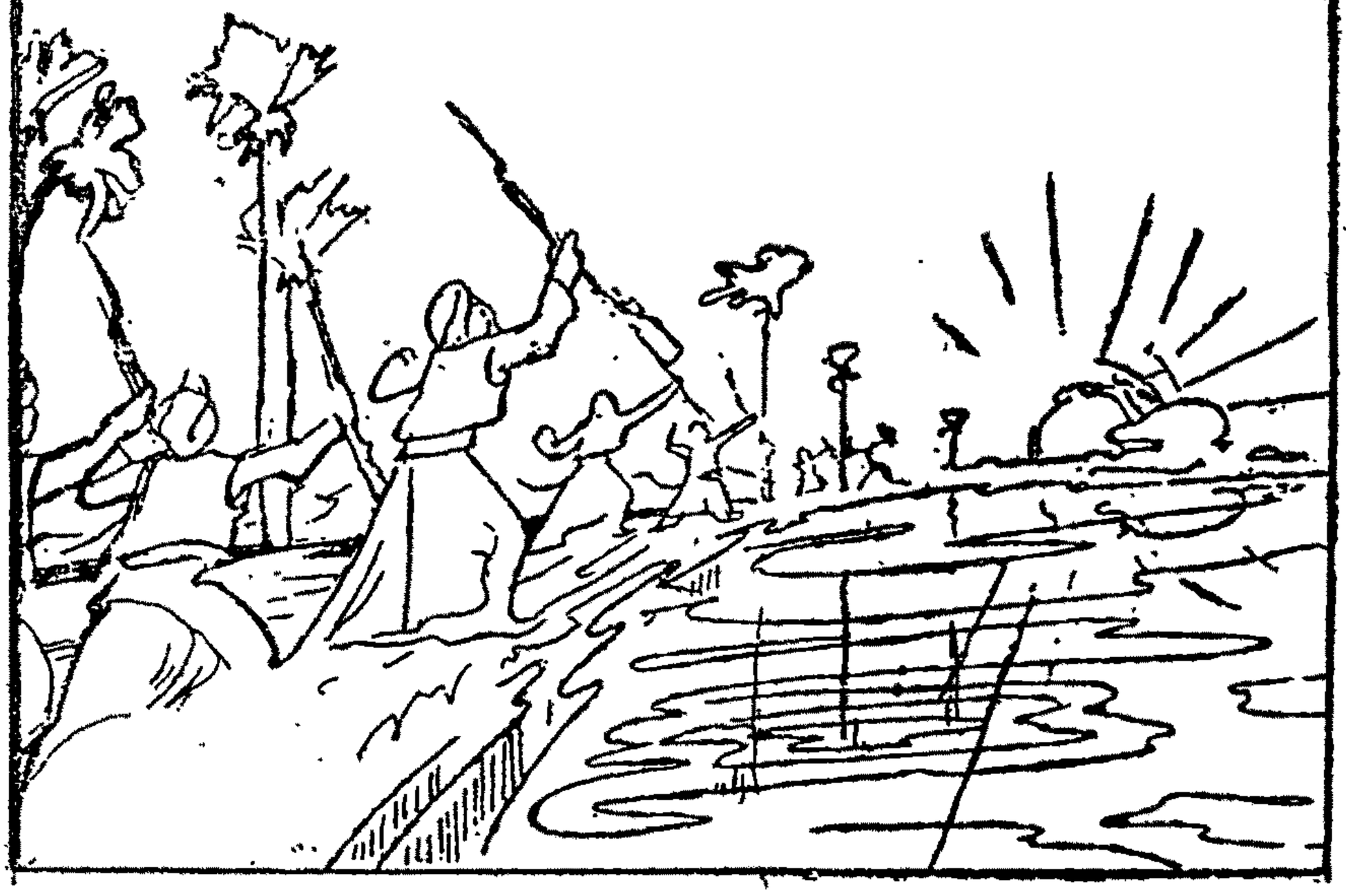

١٨

مرت الأيام تباعاً على هذه الأحداث الخالدة ..

وانطوى من التاريخ قرن وبضع قرن من الزمان ..

فلم يبق من الأبنية التى شاهدت أحداث المعركة إلا بقايا دور وأطلال حصن .. وأعمدة مسجد ..

ولم يبق من الجيل الذى قاوم النوازل[1] إلا بقايا أسر تحكى أطرافاً من التاريخ غامضة مبهمة . .

* * *

وفى يوم من أيام مايو ١٩٣٥[2] جلس شاب مخلص بقاب بين يديه صفحات من التاريخ ..

وصادف الشاب سطراً صغيراً وقعت عليه عيناه ، فعلق به بصره .. وانتقل إلى قلبه معناه ، فتعلقت به نفسه .

وكان السطر يحكى قصة « رشيد » الخالدة ولكن فى كلمات قليلة مختصرة ...

---

(١) الكوارث .

(٢) جاء فى مجلة آخر ساعة (العدد ١٢٥٠) أن الرئيس جمال عبد الناصر بدأ يكتب الفصول الخمسة الأولى من قصته فى سبيل الحرية فى ١٠ مايو عام ١٩٣٥ .

وكانت الكلمات لا تزيد على أصابع اليد الواحدة ..

(حملة فريزر واندحارها أمام « رشيد ») ..

ولكن الكلمات القلائل كانت تحكى أمام الشاب قصصاً كثيرة ..

كانت تحكى كيف يستطيع أفراد عزل أن يقهروا مدافع ثقيلة وعتاداً ضخماً ..

وكانت تحكى كيف تغلب فئة قليلة فئة كبيرة بإذن الله ..

وكانت تحكى كيف يتغلب الخير والإيمان فى النهاية على الإثم والعدوان ...

* * *

وعز على الشاب أن يختصر التاريخ نصر أمة ، وأن يوجز جهاد قوم ..

وكان فى قلب الشاب ألم ، وفى نفسه مرارة ..

فقد عاد المعتدون الذين طردتهم « رشيد » فى سبتمبر عام ١٨٠٧ ، ليحتلوا القطر فى سبتمبر عام ١٨٨٢ .

وفى المرة الأولى مكثوا فى احتلالهم أكثر من نصف عام ..

وفى المرة الثانية مكثوا فى احتلالهم أكثر من نصف قرن ..

وراح يقرأ السطر من جديد .. ويعيد تلاوة كلماته المرة تلو المرة ..

كان السطر جميلا وعذباً .. ومعانيه تقطر[1] أمناً وشهداً ..

وتمنى لو تعددت كلماته حتى تصبح صفحات .

وتمنى لو يطول السطر حتى يصبح كتاباً .

* * *

وأمسك بين يديه قلما وورقا ، وعزم أن يطيل الكلمات بنفسه ، وأن يمد السطر بقلمه .

وراح يكتب قصة .

وراح فى كل يوم يكتب فصلا .

وفى اليوم الأول كتب الفصل الأول .

وفى اليوم الثانى كتب الفصل الثانى .

حتى كان اليوم الخامس كتب الفصل الخامس .

ولكن عند ما جاء اليوم السادس قذف بالقلم من يده ، ورمى الورق جانباً .

كان قد ألح عليه خاطر غريب . فقد أحس أن الخيال لن يبلغه بما فى نفسه شيئا .

وراح يسر فى نفسه أمراً ...

---

(١) من القطر أى المطر ، وهى أيضا جمع قطرة

إن الإنجليز لن يطردهم القلم ، ولن يردهم الورق .

وعزم أن يدبر أمرا .

فبدلا من أن يدبر قصة . أخذ من بعد يدبر شعباً وجيشا .

وبدلاً من أن يطردهم على صفحات الخيال .

طردهم على صفحات الحقيقة .

طردهم ، ثم عادوا ، ثم طردهم .

وخلص الأرض الطيبة من دنسهم وإثمهم .

والآن الا يحق لنا أن نذكر هذا البلد الأمين . عند طرف النهر الخالد

الذى دحر الإنجليز فى عام ١٨٠٧ .

ثم ألم رجلا بعد قرن ونصف قرن أن يقود أمة إلى السبيل السوى .

* * *

أما ذلك البلد الأمين : فهو رشيد .

وأما ذلك الرجل الملهم : فهو جمال عبد الناصر .

وأما ذلك السبيل السوى : فهو سبيل الحرية .

﴿ تمت ﴾

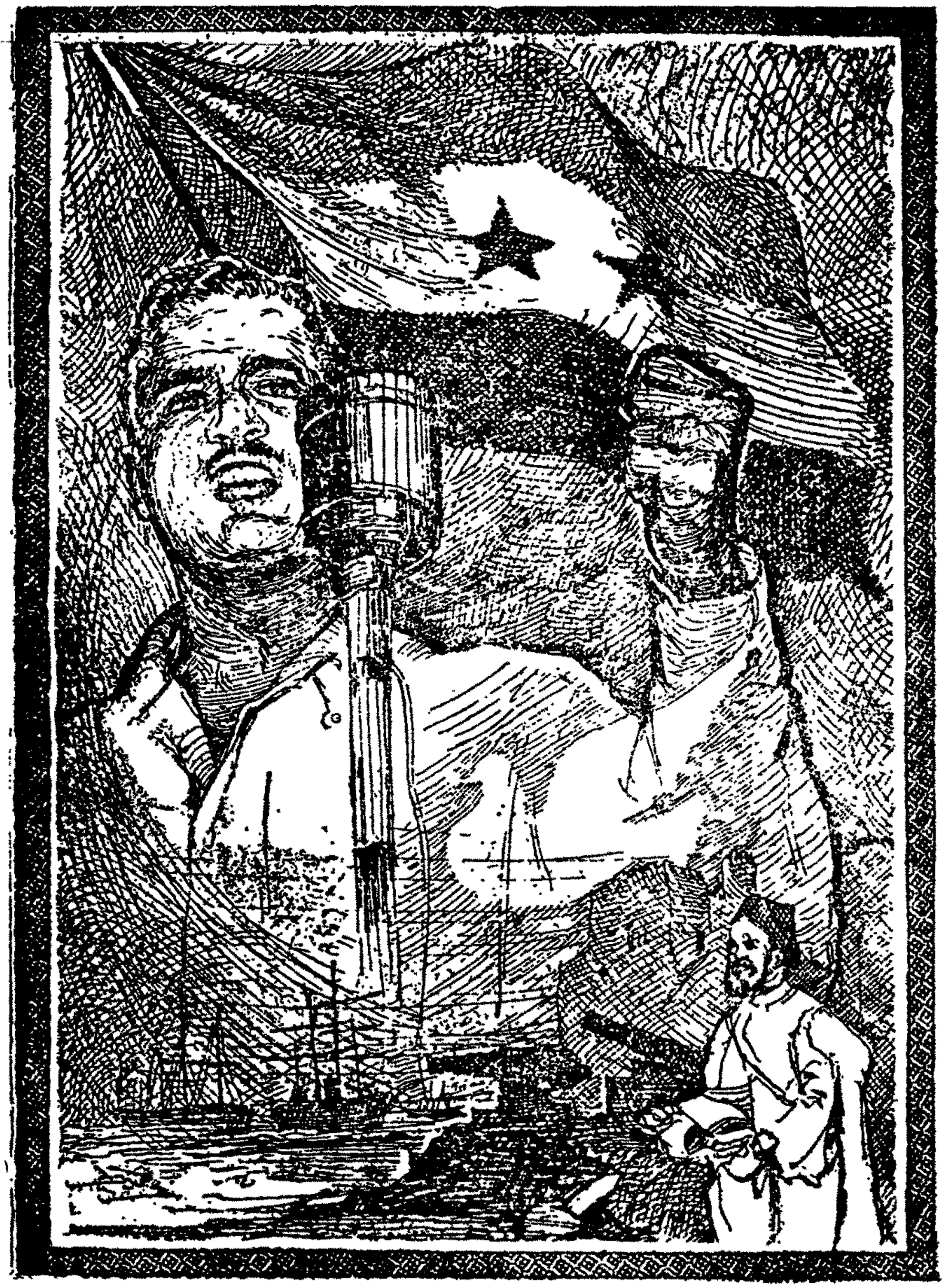

صفحة

الفصل السابع — الله معنا ٩٥
« الثامن — حبات الخرز ١٠٥
« التاسع — البلد الامين ١١٧
« العاشر — ٣١ مارس ١٢٩
« الحادى عشر — أول وعد ١٣٨
« الثانى عشر — انتقام ١٤٨
« الثالث عشر — الحصار ١٥٨
« الرابع عشر — الربوة العالية ١٧٣
« الخامس عشر — سر المقنع ١٨٤
« السادس عشر — قرية الحماد ١٩٥
« السابع عشر — الجلاء ٢٠٥
« الثامن عشر — سبيل الحرية ٢١٤

في سبيل الحرية

لبطلة

القصة التي بدأها السيد أنيس

جمال عبد الناصر

وهو طالب بالمدارس الثانوية في معركة رشيد سنة ١٨٠٧

عبد الرحيم عجاج

فازت بالجائزة الأولى في المسابقة التي أجراها
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

رأت وزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة
تدريس هذا الكتاب بمدارسها

الثمن ٢٠

ملتزم الطبع والنشر

المكتبة النموذجية

١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة ت. ٩٠٢٩٧٧